تصوف " ابن يزدانيار "

الاشتقاق والحقيقة والأصول

"دراسة تحليلية نقدية "

إعداد

د. أمين عبد المعز محمد

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة

تصوف " ابن يزدانيار " الاسم والاشتقاق ، الأصول والذاتية

أمين عبد المعز محمد محمد

قسم العقيدة والفلسفة ، كلية أصول الدين بالقاهرة ، جامعة الأزهر – مصر.

البريد الالكتروني : ameenezat90@azhar.edu.eg

الملخص:

يُعد الشيخ " ابن يزدانيار " أحد أئمة التصوف في القرن الرابع الهجري ؛ الذين عبروا عن التصوف الإسلامي الخالص ، البعيد عن التأثير بالمدارس الأجنبية ، كما أنَّه يُعد من أوائل الصوفية الذين أكدوا في مؤلفاتهم على أصول التصوف الإسلامي وذاتيته ، مما يُعد رداً واضحًا وقوياً على الرافضين للتصوف الإسلامي باعتباره دخيلاً على البيئة الإسلامية ، بالإضافة إلى رمي القائلين به ، الداعين لإحيائه في أروقتهم العلمية ، وحياتهم السلوكية بالبدعة ؛ لذلك أتت هذه الدراسة تحت عنوان : تصوف " ابن يزدانيار " الاسم والاشتقاق، الأصول والذاتية"، لتكون رداً على الرافضين للتصوف الإسلامي، وللمساهمة في إحياء التراث الإسلامي، ممثلاً، في أحد أئمة التصوف الإسلامي " الشيخ أبو جعفر بن يزدانيار".

وقد بدأت البحث بترجمة موجزة عن الشيخ " ابن يزدانيار " وكذلك تحدثت فيه عن اسم واشتقاق التصوف الإسلامي والآراء في ذلك ، وتحدثت عن أصول التصوف ، والآراء في ذلك ، كما تحدثت عن ذاتية التصوف الإسلامي ، وختمت البحث بعدد من النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: ابن يزدانيار، اسم، اشتقاق، أصول، ذاتية.

Sufism "Ibn Yazdaniyar" name and derivation, origins and subjectivity

Ameen Abdelmoez Mohamed Mohamed
Department of Doctrine and Philosophy, Faculty of Fundamentals of Religion in Cairo, Al-Azhar University - Egypt.
Email: ameenezat90@gmail.com

Abstract: Sheikh Ibn Yazdaniyar is considered one of the imams of Sufism in the fourth century AH. Who expressed pure Islamic Sufism, far from being influenced by foreign schools. He is also considered one of the first Sufis who emphasized in their writings the origins of Islamic Sufism and its essence. Which is considered a clear and strong response to those who reject Islamic Sufism as being alien to the Islamic environment, in addition to accusing those who advocate it, who call for its revival in their scientific corridors and their behavioral lives, as heresy. Therefore, this study came under the title: "The Sufism of Ibn Yazdaniar, "Name and Derivation, Origins, and Subjectivity," to be a response to those who reject Islamic Sufism, and to contribute to the revival of the Islamic heritage, represented by one of the imams of Islamic Sufism, "Sheikh Abu Jaafar bin Yazdaniar.

I began the research with a brief translation of Sheikh "Ibn Yazdanyar," in which I also talked about the name and derivation of Islamic Sufism and opinions about it. I talked about the origins of Sufism and opinions about that. I also talked about the nature of Islamic Sufism, and I concluded the research with a number of results and recommendations.

Keywords: Ibn Yazdaniyar, name, derivation, origins, personality.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ؛ خلق فسوى ، وقدَّر فهدى ؛ جعل الجوارح أداة للعبادات ؛ والأفئدة محلًا للنور والإشراقات ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الهادي البشير ، الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور .

وبعـــــــــــــد

كان التصوف ومازال محل جدالٍ بين الناس عامهم ومثقفهم ؛ بين قابلٍ له ، ومنكر لأصله متهم للقائل به المدافع عنه بالبدعة ؛ وما بين لائم للأزهر الشريف ومؤسساته العلمية والتعليمية لتدريسه هذا العلم بين جنباته وفي أروقته وساحاته التعليمية ، وبين داعم لتلك الجهود مثمنًا لها مؤيدًا دور الأزهر لإحيائه هذا التراث الروحي والدفاع عنه .

ولا يخفى على الجميع ما يسطره رواد المدرسة التيمية من طعن في التصوف واتهام للقائلين به الداعين لإحياء تلك المدرسة الروحية بالبدعة أحيانًا والمخالفة لما عليه أهل السنة حينًا آخر [١].

كما لا يخفى أنَّ جُلَّ اهتمامهم ومتكأهم في رفض التصوف والطعن عليه ؛ ما سطره الأئمة من رفض للتصوف الفلسفي ، أو ما يسمى بالشطح الصوفي الذي نُسب إلى بعض الصوفية " كالحلاج " ت ٣٠٩هـ" وغيره ؛

---

(١) راجع : حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العبادة والدين ، للشيخ / صالح بن فوزان ،(صـ ٨ ، و صـ ٥٠) ، الناشر : دار العاصمة بالسعودية ، ط١: (١٤١٢هـ) ، والصوفية معتقدًا ومسلكًا ، للدكتور/ صابر طعيمة ؛ (صـ ٧ ، وما بعدها) ، الناشر : مكتبة المعارف ، ط٢ (١٩٨٥م) .

وكذلك ما سطره بعض الأئمة من تكفير " لابن عربي" ت ٦٣٨هـ" صاحب التراث الصوفي الكبير[١] ، لما نُسب إليه من قولٍ بوحدة الوجود[٢] ؛ غير مبالين بما ورد على لسان الكثير من أهل العلم وأئمته من دفاع عن "ابن عربي" في هذه المسألة وتحقيق ما نُسب إليه وإثبات ما ورد من دس في مؤلفاته كانت سببًا في هذه الحملة عليه[٣].

يضاف إلى ذلك المحاولات المستميتة من المستشرقين قديمًا وحديثًا من التشكيك في أصول وثوابت التصوف الإسلامي ؛ وارجاعه مرة إلى

---

(١) راجع : مصرع التصوف " تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي " ؛ للبقاعي ، تحقيق وتعليق : عبدالرحمن الوكيل ، الناشر : مطبعة السنة المحمدية ، سنة : (١٩٥٣م) .

(٢) عبارة وحدة الوجود مبنية على كلمتين: الأولي: الوَحدة ومصدرها وَحَدَ ؛الذي يعني الانفراد، والوجود؛ الذي يعني كل ما هو موجود ،أو يمكن أن يوجد؛ فهكذا يظهر أنَّ وحدة الوجود تعني أنَّ الوجود واحد، بمعني أنَّ الله ،والعالم حقيقة واحدة، أو بعبارة أوضح: أنَّ الوجود الحقيقي هو وجود واحد وهو وجود الله ، أمَّا وجود الخلق فمجرد ظل لصاحب الظل؛ فالخلق بهذا الاعتبار شبح، وعليه فإنَّ ثنائية الحق والخالق ثنائية موهومة زائفة ؛ فالحق والخلق حسب مذهب وحدة الوجود وجهان لحقيقة واحدة . راجع : المعجم الوسيط، (١٠١٧/٢)، مادة "وحد"، الناشر : مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط/ دار الدعوة ، ومفهوم الألوهية، أشرف حافظ، (صـ ١٠٤) ،الناشر: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، ط١(١٩٩٩م.)

(٣) راجع : اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للشيخ / عبد الوهاب الشعراني (٣٣/١) الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، بدون تاريخ .

الرهبانية المسيحية ، ومرة إلى اليونانية ، والأفلاطونية المحدثة ، ومرة إلى البوذية ؛ وغير ذلك من البيئات والثقافات الخارجية[١] .

ولهذه الأسباب كانت هذه الدراسة حول تصوف الشيخ " أبو جعفر بن يزدانيار " ولقرب مولده من القرون الثلاثة الأولى أردت أنْ أثبت من خلاله حقيقة هذا العلم أصوله وذاتيته ؛ وقد وقعت يدي على نسخ لمخطوط للشيخ "ابن يزدانيار " سماه " روضة المريدين " صنفه في آداب الصوفية وأحكامهم ؛ وكنت عازمًا على إخراج هذا المخطوط للنور وتحقيقه ؛ إلا أنني رأيت أنَّ الضرورة هنا أنْ أركز على أصول العلم وحقيقته كما سطره الشيخ مستعينًا في ذلك بما يتوفر لدي من مراجع تؤصل لهذه المسألة وتوضحها .

أسباب اختيار الموضوع :

ويمكنني أنْ ألخص أسباب اختيار الموضوع فيما يلي :

١/ الطعن والتشكيك الموجه إلى التصوف الإسلامي وأصوله قديمًا وحديثًا .

٢/ قرب مولد الشيخ " ابن يزدانيار " من القرون الثلاثة الأولى ، وتلقيه العلم على علماء التصوف وشيوخه الأوائل ؛ فمولده وحياته في القرن الرابع الهجري ، ووفاته في القرن الخامس الهجري .

---

(١) راجع : التصوف ، لماسينيون ، والشيخ / مصطفى عبد الرازق (صـ ٢٨، وما بعدها) ، الناشر : دار الكتاب اللبناني ، ط١ : (١٩٨٤م) .

٣/ المساهمة ولو بقدر ضئيل في خدمة التراث الإسلامي والدفاع عنه .

منهج الدراسة :

اعتمدتُ في بحث هذا الموضوع على منهجين متكاملين :

أولهما : المنهج التاريخي وذلك في الترجمة للشيخ " ابن يزدانيار " ونقل الأقوال والآراء .

وثانيهما : المنهج التحليلي النقدي ، وذلك في أفكار وقضايا البحث.

خطة الدراسة :

أما بالنسبة لخطتي في هذه الدراسة ، فقد قسمت البحث إلى :

مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة :-

أما المقدمة : فذكرت فيها : أهمية البحث ، وأسباب اختياره ، والمنهج المتبع فيه ، وخطة الدراسة.

وأما التمهيد : فسأتناول فيه : ترجمة الشيخ " ابن يزدانيار " .

وامَّا المبحث الأوَّل : فسأتناول فيه الحديث عن اسم واشتقاق التصوف عند " ابن يزدانيار "

وأمَّا المبحث الثاني: ففيه الحديث عن أصل التصوف الذي بُنيَّ عليه.

المبحث الثالث : وفيه الحديث عن حقيقة التصوف ؛ عند " ابن يزدانيار".

وأما الخاتمة : ففيها أهم التوصيات والنتائج .

تمهيد

ترجمة الشيخ " ابن يزدانيار " :

ذكر العلامة "شمس الدين الذهبي "ت ٧٤٨هـ" ؛ ترجمة " ابن يزدانيار " في كتابه : " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام " فقال : هو أبو جعفر السَّعيديُّ الهمذاني الصُّوفيُّ؛ ويعرف بالقاضي.

روى عن : يوسف بن أحمد بن كجّ، وأبي عبد الله بن فنجويه، ومحمد بن أحمد بن حمدويه الطوسي، وعبد الرحمن بن الإمام، وأحمد بن الحسن الإمام، وأحمد بن عمر حموش، ونصر بن الحارث، وجماعة كبيرة .

قال شيرويه[١] : "سمعت منه ، وكان ثقة صدوقًا فقيرًا ؛ وكان أصم، وكنت إذا دخلت بيته ضاق لما أرى من حاله" .

تُوفي في جمادى الأولى ، قيل : سنة (٤٧٢هـ) وكان مولده في سنة ثمانين و ثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة[٢] .

---

(١) هو : شِيْرَوَيْه بنُ شَهْرَدَارَ بنِ شِيْرَوَيْه بنِ فَنَّاخُسْرو بنِ خُسْرَكَانَ ، المُحَدِّثُ، العَالِمُ، الحَافِظُ، المُؤَرِّخُ، أَبُو شُجَاعٍ الدَّيلمِي، الهَمَذَانِيُّ، مُؤلف كِتَاب "الفِرْدَوْس" ، وَ "تَارِيخ هَمَذَان" ، وُلِدَ: سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ ، ومَاتَ: فِي تَاسع عشر رَجَب، سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْس مائَة، وَلَهُ أَرْبَعٌ وَسِتُّوْنَ سَنَةً . راجع : سير أعلام النبلاء ، للإمام الذهبي (١٩/ ٢٩٤) ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، ط٣: (١٩٨٥م) .

(٢) راجع : تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ، للإمام الذهبي ، (١٠/ ٣٤٤) ، تحقيق د/ بشار عوّاد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي ، ط١ (٢٠٠٣ م) .

ونص نُساخ كتاب "روضة المريدين "[1] لابن يزدانيار " على اسمه في أوَّل الكتاب ؛ فهو "الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسين بن أحمد بن يزدانيار[2] " .

([1]) نص "الشيخ أبو جعفر بن يزدانيار" على سبب تأليفه لهذا الكتاب ؛ فقال : " فقد سألني بعضُ الإخوان أن أجمع لهم فُصولًا في معنى آداب الصُّوفيةِ وأحكامِهم وطريقتِهم وأحوالِهم وأخلاقِهم، فأجبتُه إلى مُلتمسِه، واختصرتُ له طرفًا مما سمعنا من المشايخِ – رحمهم الله – ولكني تركتُ الأسانيد للتَّطويلِ، وجعلتُه كتابًا موجزًا لطيفًا؛ وسمّيتُه: "روضةُ المريدين" وبالله أستعينُ فيه " .

([2]) جدير بالذكر ، أنْ نؤكد على أنَّ اسم " ابن يزدانيار " يشارك شخصية الدراسة فيه ؛ شخصية أخرى نُسبت أيضاً إلى التراث الصوفي ؛ وهي شخصية الشيخ " أَبُو بكر الْحُسَيْن بن عَليّ بن يزدانيار " من أعلام التصوف في القرن الرابع الهجري ، وصفه البعض بقوله : " " كَانَ عَالماً بعلوم الظَّاهِر وعلوم الْمُعَامَلَات والمعارف" ، وقد اختلف في تصوفه حيث كان ينكر على بعض مشايخ العراق أقاويلهم وأنَّه قدَّم نقدًا للتصوف في عصره، ومن هنا اختُلف فيه باعتباره معادٍ للصوفية، أو ناقد يريد الإصلاح . راجع ترجمته في : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصبهاني (١٠/ ٣٦٣) ، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ، (١٩٧٤م) ، وطبقات الصوفية ، للسلمي (صـ ٣٠٦).

المبحث الأول

اشتقاق التصوف عند " ابن يزدانيار "

مسألة الاسم والاشتقاق تناولها المتصوفة والمهتمون بالتراث الصوفي في كتبهم وأبحاثهم ؛ والشيخ " ابن يزدانيار " شأنه كشأن المتصوفة الأوائل اهتم بالبحث عن اسم واشتقاق مصطلح التصوف ؛ ونص عليه في مؤلفه "روضة المريدين " ؛ وأفرد له باباً ؛ وسأتناول في هذا المبحث ما نص عليه " الشيخ ابن يزدانيار" مؤكداً رأيه في المسألة ؛ معلقاً على المسألة بما يوضحها لدى القارئ ويبرز آراء المتصوفة، والمهتمين بالتراث الصوفي قديمًا وحديثًا .

- **الاسم والاشتقاق عند " ابن يزدانيار "**

يقول الشيخ " ابن يزدانيار " : اختلف الناس في اشتقاق التصوف:

فقال بعضهم: اشتقاقه من (لبس الصوف).

وقال آخرون: اشتقاقه من (الصفاء).

وقال بعضهم: اشتقاقه من (الصُفة وأصحاب الصُفة).

وقال بعضهم: هو مفعول من الصفاء، يقال : صوفي ؛ أي صافاه الله كما يقال: عُوفي أي عافاه الله .

وقال "أبو يزيد البسطامي "ت ٢٦١هـ" : إنما سُميت الصُوفية بهذا الاسم ؛ لأنَّ الحق أنار لهم نوراً مشعشعاً فرمقته الأبصار بتلاحظها عن كامن وَجدٍ وظاهرَ علم فمن لاحظه بكامن وجد سمي: صوفياً ، ومن لاحظه بظاهر علمٍ سُمي صالحاً.

وقد قيل في هذا المعنى ثلاثة أوجه، أو أجوبة :

جواب بشرط العلم وهو: تصفية القلوب من الأكدار واستعمال الخُلق مع الخليقة واتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الشريعة.

وجواب بلسان الحقيقة ؛ وهو عدم الأملاك والخروج من رق الصفات ، والاستغناء بخالق السماوات .

وجواب بلسان الحق: صفاهم الصفاء عن صفاتهم ، وصفَّاهم عن صفاتهم فسموا صوفية.

والتصوف في اللغة :تَفَعُّل من لبس الصوف ؛ فيقال لمن لبس الصوف: تَصَوَّف، ولمن لبس القميص تَقَمَّص، ولمن لبس الدرع تَدَرَّع .

والأصح والمعتمد عليه ؛ وهو التحلي بلباسهم والترسم برسمهم ؛ لأنَّ الصوفية لم يتفردوا بنوع علم دون الورع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والطاعات ، لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الرفيعة وهم مع الله سبحانه وتعالى في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين الزيادة، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين لاسم دون اسم ، ولا يضاف إليهم حال دون حال ولا علم دون علم ؛ لو أضيف إليهم في كل وقت ما يكون إلا غلبة من أحوالهم وأعمالهم لكان الواجب نسبتهم بكل وقت باسم آخر لأنهم معدن جميع ذلك؛

ولمَّا صدق ذلك نسبهم إلى ظاهر اللبسة ؛ لأنَّ لبس الصوف دأب الأنبياء والأولياء والصديقين ؛ فقيل : الصوفية حتى يكون اسماً مجملاً عاماً مُخبراً عن جميع النسك[١].

تعقيب :

يلاحظ من أول وهلة أنَّ " ابن يزدانيار" بعد ذكر الآراء التي من الممكن أنْ تكون أصلاً لاشتقاق اسم التصوف ، وإن كان لم يعقب عليها بالقبول أو الرفض أو سببه ؛ وهذا ما سأوضحه في السطور التالية ؛ إلا أنَّه مال إلى ترجيح الرأي القائل باشتقاق اسم التصوف من الصوف ونسبته إلى ظاهر اللبسة .

ويلاحظ أيضاً تأثر " ابن يزدانيار " في هذا بالإمام "الطوسي" الذي نص في كتابه " اللمع " على هذا الرأي ؛ ورجحه بقوله : إذا سأل سائل فقال : نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ، ونسبت الفقهاء إلى الفقه ؛ فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم ؟ ولم تُضف إليهم حالًا ؛ كما أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين ، والصبر إلى الصابرين ؟

فيقال : لأنَّ الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات[٢] دون رسم ؛ وذلك لأنهم معدن

---

(١) راجع : روضة المريدين " لابن يزدانيار " مخطوط جامعة برنستون ، لوحة رقم (١٨) ، ومخطوط تركيا ، لوحة رقم (٢٠) .

(٢) المقام في اصطلاح الصوفية هو :ما تحقق العبد بمنازلته من الآداب، أو هو عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف؛ فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك، والحال : معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا ==

جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالفاً ومستأنفاً..... .

إلى أنْ قال : فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً مجملاً عاماً مُخبراً عن جميع العلوم والأخلاق الشريفة المحمودة ؛ ألا ترى أنَّ الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى – عليه السلام– فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال – عز وجل – : (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ)[1] ، فكانوا قومًا يلبسون البياض فنسبهم إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين ؛ فكذلك الصوفية عندي الله أعلم ؛ نسبوا إلى ظاهر اللبس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال " [2] .

ولعل ما ذهب إليه " ابن يزدنيار" من القول بأنَّ الصوفية لبسوا الصوف اقتداء بالأنبياء ؛ قد تأثر فيه بما ذكره " الكُلاباذي"ت٣٨٤هـ " في كتابه " التعرف لمذهب أهل التصوف " ؛ حيث قال : " الصوف غالب لبسة

==

اجتلاب ولا اكتساب، والفرق بين المقامات والأحوال؛ أنَّ الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود. راجع : التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني(صـ١١٠،و٢٨٩)، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ط١: (١٤٠٥هـ)، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، لأبي القاسم القشيري (١/ ١٥٢) ، تحقيق : د/ عبد الحليم محمود ، الناشر : المكتبة التوفيقية بالقاهرة ، سنة النشر : (٢٠٠٨م) .

(1) سورة المائدة ؛ جزء من آيه رقم (١١٢) .

(2) راجع : اللمع ؛ لأبي نصر السراج الطوسى ؛(صـ ٤٠) ، تحقيق وتقديم : د/ عبد الحليم محمود ، و د/ طه عبد الباقي سرور ؛ الناشر : دار الكتب الحديثة بمصر ، طبعة سنة : (١٩٦٠م) .

الصوفية ؛ وهم يعتزون بلبسه لاقتدائهم في ذلك بالأنبياء ؛ روى أبو موسى الأشعري عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنَّه قال : " لَقَدْ مَرَّ بِالصَّخْرَةِ مِنَ الرَّوْحَاءِ سَبْعُونَ نَبِيًّا مِنْهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى حُفَاةً عَلَيْهِمُ الْعَبَاءُ يَؤُمُّونَ بَيْتَ اللَّهِ الْعَتِيقَ "[١]. ، وقال "الحسن البصري" : " كان عيسى – عليه السلام – يلبس الشعر ، ويأكل من الشجرة ، ويبيت حيث أمسى ، وقال "أبو موسى": كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ، وَيَأْتِي مُرَاعَاةَ الضَّيْفِ "[٢] ، وقال "الحسن البصري "ت١١٠هـ" : لقد أدركت سبعين بدرياً ما كان لبساهم إلا الصوف " [٣] .

وجدير بالذكر هنا أنْ أشير إلى الآراء التي تناولت مسألة الاسم والاشتقاق ؛ مما يعطي للقارئ تصوراً مُرضياً عن المسألة ؛ وقد تعددت الآراء في ذلك ومنها :-

---

(١) ذكره الإمام " أبو بكر الهيثمي " في كتابه " مجمع الزوائد ومنبع الفوائد " وعلَّق عليه بقوله : " رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَفِيهِ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ، وَفِيهِ كَلَامٌ " . راجع : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لابن الهيثمي (٣/ ٢٢٠) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، طبعة سنة : (١٩٨٨م) .

(٢) ذكره العلامة " البيهقي " في كتابه " السنن الكبرى ؛ وعلَّق عليه بقوله : " كَذَا أَخْبَرَنَاهُ هُوَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ غَيْرَ مَحْفُوظٍ " . راجع : السنن الكبرى للبيهقي (٢/ ٥٨٨) ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٣ : (٢٠٠٣م) .

(٣) راجع : التعرف لمذهب أهل التصوف ؛ لأبي بكر محمد الكُلاباذي ، (صـ ٢٢) ، تحقيق وتقديم : د/ عبد الحليم محمود ، و د/ طه عبد الباقي سرور ؛ الناشر : دار إحياء الكتب العربية بمصر ؛ طبعة سنة : (١٩٦٠م) .

الرأي الأول :

ذهب أصحابه إلى أنَّ كلمة تصوف من الكلمات المهاجرة من اليونانية إلى العربية ؛ وعلى هذا تكون كلمة تصوف مأخوذة من الكلمة اليونانية " سوفيا " ، بمعنى الحكمة ؛ للدلالة على أنَّ المتصوفة قد أخذوا منهج الحكمة ومحبتها طريقًا آمنًا لهم في الحياة .

وقد ذكر الدكتور "أبو العلا عفيفي" ت ١٩٦٦م" انفراد البيروني[١] من بين الكتاب العرب بقوله إنَّ هناك صلة بين اسم الصوفي والكلمة اليونانية "سوفيا" ، وعنه أخذ هذا الرأي بعض المستشرقين [٢]

وَيَحكم بخطأ هذا الرأي أمران : –

أحدهما : أنَّ مبنى كلمة " سوفيا " مخالف لمبنى كلمة "تصوف " .

ثانيهما : أنَّ الكلمات اليونانية قد هاجرت إلى اللغة العربية بكثافة في عصر الترجمة ؛ وعصر الترجمة هو عصر الدولة العباسية ؛ وكلمة "

---

(١) البيروني: محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي المتوفى سنة (٤٤٠هـ) . راجع : بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة ، للحافظ جلال الدين السيوطي ،(١/٥٠). تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . الناشر : دار الفكر . ط٢:(١٩٧٩م)

(٢) راجع : التصوف " الثورة الروحية في الإسلام " ، للدكتور/ أبو العلا عفيفي (صـ ٣٤) ، الناشر : دار الشعب – بيروت ، بدون تاريخ ، وقارن بما ورد في :تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، للبيروني (صـ ٢٧) ، الناشر : عالم الكتب – بيروت ، ط٢: (١٩٨٣م) .

تصوف " على كل حال كان لها وجود واستعمال في الواقع الإسلامي قبل عصر الترجمة . [١]

الرأي الثاني :

ذهب أصحابه إلى أنَّ التصوف مشتق من " صوفة القفا " وهي الشعر الذي ينبت في مؤخرة الرأس ، إشارة بذلك إلى أنَّ الصوفي هيِّن ليِّن ؛ مستشهدين بما قاله " الجنيد "ت ٢٩٨هـ" : " الصوفي كالأرض يُطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح". [٢]

ولا يخفى على القارئ ما في هذا الرأي من بُعد ، كما أنَّه لم يقل به أحد من المتصوفة ولم يرجحه أحد من الباحثين في التراث الصوفي .

الرأي الثالث :

وفيه ذهب البعض إلى أنَّ أصل الاشتقاق إنَّما هو كلمة " صوفانة " وهي نبتة رعناء تنبت في الصحراء ، ويستند أصحاب هذا الرأي إلى أنَّ الصوفية كانوا يكتفون بالقليل من متاع الحياة .

ويحكم بخطأ هذا الرأي أيضًا أنَّه لا يوافق اللغة ؛ فلو كان مشتقًا من صوفانه؛ لقيل: صوفاني لا صوفي، كما أنَّ هذا الرأي لم يعول عليه أحد من الباحثين في التراث الصوفي.

---

(١) التصوف في الإسلام " دراسات ونصوص من كتاب قواعد التصوف للشيخ زروق " للأستاذ الدكتور / طه حبيشي (صـ ٢٨) ، الناشر : مكتبة الإيمان ، بدون تاريخ .

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصبهاني (١٧/١) .

الرأي الرابع :

وهو ما ذكره " ابن الجوزي "ت ٥٩٧هـ" من نسب الصوفية إلى رجل عاش في الجاهلية يدعى "صوفة" واسمه "الغوث بن مر" [١]، وكان قد انقطع للعبادة وتعلق بالزهد، وخدمة البيت الحرام، فاقتدى الصوفية به وبطريقته ونسبوا إليه[٢] ؛ وقال : إنَّما سمي " الغوث بن مر" صوفة ؛ لأنَّ أمه كانت لا تلد، فنذرت لله إن هي ولدت رجلًا أن تصدق به على الكعبة عبدًا لها يخدمها، ويقوم عليها؛ فولدت الغوث، فوفت بنذرها وجعلته في خدمة الكعبة فأرهقه حر المكان وأذبله ؛ فلما شاهدته على هذا الحال قالت: ما صار ابني إلا صوفة ، فتلقفتها أفواه العرب وأطلقتها عليه وعلى طائفة كانت تتولى بعض المناسك . [٣]

ولا خفاء في إن هذا الرأي فضلًا عن إن قائله من المعادين للتصوف الرافضين له ؛ فإنه كذلك يقطع الصلة بين التصوف الإسلامي ونشأته في البيئة الإسلامية الخالصة على ما سنؤكده في السطور التالية .

---

(١) الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر. قال ابن هشام: كان يلي الإجازة للناس بالحج من عرفة، وولده من بعده، وكان يقال له ولولده صوفة. وإنما ولي ذلك الغوث بن مر، لأن أمه كانت امرأة من جرهم، وكانت لا تلد، فنذرت لله إن هي ولدت رجلًا أن تصدق به على الكعبة عبدًا لها يخدمها، ويقوم عليها. فولدت الغوث، فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم، فولي الإجازة بالناس من عرفة، لمكانه الذي كان به من الكعبة، وولده من بعده حتى انقرضوا. يراجع: ابن هشام: السيرة النبوية (١: ١١٩).

(٢) أبو الفرج بن الجوزي: تلبيس إبليس (ص: ١٤٥).

(٣) راجع : تلبيس إبليس ، لابن الجوزي (صـ ١٤٥) ، الناشر : دار الفكر للطباعة – لبنان ، ط١: (٢٠٠١م) .

وقد علق أستاذنا الدكتور/ طه حبيشي ؛ على هذا الرأي بقوله : " وكاتب هذه السطور له في هذه المسألة راي لا يعلق فيه كبير اهتمام على ما ذكره البعض من أنَّ الاسم شاع استعماله ، أو استعمل على ندرة في جزيرة العرب قبل الإسلام كما رأيت ، لأنَّه ما كان من الممكن ولا من المعقول أنْ تتشبه طائفة من المسلمين بجماعة من أهل الجاهلية ، وتتسمى بأسمائها ، أو تخلع عليها لقب عُرفت به " [١] .

الرأي الخامس :

ويرى أصحابه أنَّ كلمة " تصوف" مشتقة من " الصفاء " ، ومرجعها إليه ، ومستند هؤلاء أنَّ التصوف في أصله قائم على تصفية النفس عن الأكدار وتزكيتها بالبعد عن الرذائل والآثام ، حتى قال البعض : "الصوفي من صفا قلبه لله" ، وقال: "الصوفي من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته " [٢] .

وقد نسب الشيخ "زروق الفاسي"ت٨٩٩هـ " هذا الرأي إلى الشيخ " أبو الفتح البستي" ت٤٠٠هـ" ، حيث قال شعرًا :

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا * جهلاً وظنوه مشتقاً من الصوفي

ولست أنْحَلُ هذا الاسم غيرَ فتى * صَافي فَصُوفيٍ حتى سُمي الصُوفِي. [٣]

---

(١) التصوف في الإسلام " دراسات ونصوص من كتاب قواعد التصوف للشيخ زروق " (صـ٢٧) .

(٢) راجع : التعرف لمذهب أهل التصوف (صـ ٢١) .

(٣) راجع : قواعد التصوف ، للشيخ أحمد بن زروق الفاسي (صـ ٢٤) ، تحقيق : عبد المجيد خيالي ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٢: (٢٠٠٥م) .

وهذا الرأي وإنْ كان له وجاهته من حيث إنَّه قائم على تصفية القلوب مما يُعد أساساً لسلوك المتصوفة ؛ إلا إنَّه لا يوافق اللغة فمقتضى كونه من الصفاء أنْ يُقال صافٍ ، لا صُوفي .

الرأي السادس :

يرى أصحابه أنَّ التصوف نسبته إلى الصف ؛ ذلك لأنَّ الصوفية دائمًا في الصف الأول مقبلين على الله بقلوبهم وبصرف همهم عما سواه[١].

وهذا الرأي أيضاً لا يوافق اللغة ؛ فالنسبة إلى الصف يقال فيها " صَفي " لا " صوفي " .

الرأي السابع :

وذهب أصحابه إلى أنَّ التصوف يرجع إلى " الصُفة " ؛ وهي مكان بمسجد رسول الله أختصه لفقراء المهاجرين وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يواسيهم بماله ، ويتفقد أحوالهم، ويصطحبهم معه إذا ما دُعي.

وفيهم نزل قوله تعالى : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[٢] وقوله : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) [٣] .

وقد أنكر " ابن خلدون "ت ٨٠٨هـ " على القائلين بهذا الرأي وبيَّن أنَّ سبب الإنكار يرجع لأمرين :

---

(١) راجع : التعرف لمذهب أهل التصوف (صـ ٢٣) .

(٢) سورة الأنعام ؛ جزء من آيه رقم (٥٢) .

(٣) سورة الكهف ؛ جزء من آيه رقم (٢٨) .

أولهما : الفرق بين " صُفه " ، وصوفي ظاهر في المعنى ؛ أو بعبارة " ابن خلدون" : " قياس النسب إلى الصُفة يأباه " – أي تأباه اللغة–.

ثانيهما : أنَّ أهل الصُفة لم يكونوا مختصين على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بطريقة في العبادة ، بل كانوا إسوة الصحابة في العبادة والقيام بوظائف الشريعة[١] .

وأُضيف إلى ذلك ما يحكيه التاريخ وما تذكره كتب طبقات الصوفية من سلاسل لطرق التصوف ليس فيها سلسلة واحدة تنتهي إلى أحد رجالات التصوف[٢].

الرأي الثامن :

وقد تبنى هذا الرأي " الإمام القشيري " ت ٤٦٥هـ" حيث أنكر الآراء السابقة التي حاول أصحابها البحث عن اشتقاق لمصطلح التصوف ؛ وبيَّن أنَّ كلمة "تصوف" جامدة وغير مشتقة، وأنَّها تجري على غير قياس، وأنَّ هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفي وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: متصوفًا وللجماعة المتصوفة وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس والاشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب ، وأنَّ

(١) راجع : شفاء السائل وتهذيب المسائل ، لابن خلدون (صـ ٥٢) ، تحقيق : محمد مطيع الحافظ ، الناشر : دار الفكر المعاصر – بيروت ، ط١: (١٩٩٦م) .

(٢) التصوف في الإسلام " دراسات ونصوص من كتاب قواعد التصوف للشيخ زروق " (صـ٣٩) .

هذه الطائفة أشهر من أنْ يُحتاج في تعينهم إلى قياس لفظ ، أو استحقاق اشتقاق [١].

هذا وإنْ كان هذا الرأي له واجهته وفائدته في حسم الخلاف بين الباحثين حول الأصل اللغوي لهذه الكلمة ؛ إلا أنني أرجح ما ذهب إليه الشيخ " ابن يزدنيار " من اشتقاق التصوف ونسبته إلى ظاهر لبس " الصوف " ؛ وذلك لعدة أمور منها :

أنَّ هذا الرأي هو ما ذهب إليه ورجحه أغلب المتصوفة والمحققين قديمًا وحديثًا [٢] .

وكذلك أنَّ نسبته إلى الصوف صحيحة من حيث اللغة .

ومنها أيضاً أنَّ نسبته إلى ظاهر اللبسة يُعد إشارة إلى نشأة التصوف في البيئة الإسلامية الخالصة على ما ورد ذكره من أثار تبين أنَّ لبس الصوف دأب الأنبياء والصالحين ، والمتصوفة على ما نُقل عنهم أكثر الناس اقتداءً بالأنبياء والصالحين .

وأخيرًا التأكيد على أنَّ النسبة إلى ظاهر اللبسة لا يحط من شأن المتصوفة على ما تخوف منه البعض ؛ ففي إزالة هذا التخوف يقول الإمام " عبد الحليم محمود " – رحمه الله – : " وليس من المحتم دائمًا أنْ يكون

---

(١) راجع : الرسالة القشيرية في علم التصوف ، لأبي القاسم القشيري (٢/ ٤٢٢) .

(٢) كالإمام الطوسي ، والسهروردي ، والكُلاباذي ، وأبو نعيم ، وابن خلدون ، وابن الجوزي ، والإمام عبد الحليم محمود ، وغيرهم الكثير . راجع : في رياض التصوف ، للأستاذ الدكتور / جمال سعد محمود ، الناشر : الكتاب الجامعي بجامعة الأزهر ، بدون تاريخ .

المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضع الاسم له ؛ إذ المعنى الأصلي قد يتطور ويتغير ويختلف ؛ وقد يُقصد عكسه ؛ ومن أجل ذلك فإنّه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أنْ ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أنَّ انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه " [١] .

(١) راجع : أبحاث في التصوف على المنقذ من الضلال ؛ للدكتور / عبد الحليم محمود (صـ ٣٤) ، الناشر : دار المعارف بالقاهرة ، سنة الطبع : (١٩٨١م) .

المبحث الثاني

أصل ما بُنيَّ عليه التصوف

تمهيد :

سبقت الإشارة إلى أنَّ هذا المبحث يُعدُّ رادًا على من زعم من المستشرقين وغيرهم من دعاة السلفية ، وبعض الكُتاب المعاصرين أنَّ التصوف يرجع بأصله إلى رهبانية النصارى ، أو زرادشتية الفرس ، أو فيدا الهنود ، أو أفلاطونية اليونان .

ومن هنا تأتي أهمية هذا المبحث لنؤكد من خلاله ما نص عليه الشيخ " ابن يزدانيار " على أصول التصوف ، وما نقله عن شيوخه أئمة التصوف ؛ ليؤكد على أنَّ التصوف نشأ في البيئة الإسلامية وأنَّ أصوله ومعانيه من زهد وورع وإيثار أصيلة في مصادر المسلمين من قرآن وسنة وأخلاق وسلوك تناقله أتباعه على مر العصور .

وسأبدأ في هذا المبحث بما نص عليه الشيخ " ابن يزدانيار " ليقف القارئ على ما نص عليه أئمة التصوف الأوائل كما نقلها عنهم الشيخ " ابن يزدانيار " ، كما لا يفوتني أنْ أُعرج في نهاية المبحث بذكر آراء بعض المستشرقين ومحاولتهم في قطع الصلة بين التصوف وأصوله الإسلامية ، والرد عليهم ، بما يتمم الفائدة من هذا المبحث .

أولاً : أصل ما بُنيَّ عليه التصوف عند " ابن يزدانيار "

يقول " ابن يزدانيار " : قال "سهل بن عبدالله التستري "ت ٢٨٣هـ": "أصل مذهبنا ثلاثة أشياء :أكل الحلال ، والاقتداء برسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الأخلاق والأفعال، وإخلاص النية في جميع الأعمال" .

وقال "الجنيد": " من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا العلم لأنَّه مضبوط بالكتاب والسنة " ثم قال: " كنا لا نعبأ بالصوفي إذا دخل في التصوف بغير علم" .

وقال "أبو حفص الحداد " ت ٢٦٤هـ" : أصل مذهبنا ثلاثة أشياء: "السكون إلى الله تعالى، وقلة الغذاء ، والهرب من الخلق " .

وقال الجنيد : "مذهبنا مبني على الكتاب والسنة " .

وقيل " لأبي أحمد القلانسي"[١] – أستاذ الجنيد – : على أي شيء بنيت أصل مذهبك؟

فقال: " على ثلاثة خصال: لا نطالب أحدًا من الناس بواجب حقنا ، ونطالب أنفسنا بواجب حقوق الناس ، ونلزم أنفسنا التقصير في جميع ما نأتي به" .

---

(١) أبو أحمد القلانسي ؛ شيخ الصوفية، القدوة، أبو أحمد مصعب بن أحمد البغدادي، حكى عنه: الواعظ علي بن محمد المصري، وغيره ، قال ابن الأعرابي: "الحكايات عن أخلاقه ومذاهبه يطول بها الكتاب" . راجع : سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي (١٣/ ١٧٠) ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، ط٣ (١٩٨٥م) .

وقال غيره: " بنينا مذهبنا على ثلاثة: متابعة الأمر والنهي ، ومعانقة الفقر ، والشفقة على الخلق" .

وقال "الجنيد" : من تكلم في هذا العلم من غير منازلة لم ينتفع به المستمع.

وقال شاه الكرماني[1]: من نطق عن درجة لم يرقى إليها كان حقيقاً على الله أن يحرمه تلك الدرجة فلا ينالها أبدًا.

وقال "الجنيد": "من خالفت إشارته فهو كذاب مدعي".

وقال "ابن عياض "ت ١٨٧هـ":" إذا نزع من باطن الإنسان الخيرات أطلق لسانه بالدعاوي العظيمة ودقائق الأمور" .

وقال "حذيفة المرتعش "ت ٢٠٧هـ":" دخلنا مكة مع "إبراهيم بن أدهم "ت١٦٢هـ " – قُدسَ سره – فإذا "شقيق البلخي" في تلك السنة يحج فاجتمعنا جميعًا في الطواف" ؛ فقال "إبراهيم" ، "لشقيق":" على أي شيء بنيتم أصولكم" ؟

قال: "على أنَّه إذا رُزقنا حَمدنا ، وإذا مُنعنا صَبرنا ".

فقال له: " هكذا كلاب بلخ ، إذا رزقت أكلت ، وإن منعت صبرت".

---

(١) شَاهُ الْكَرْمَانِيُّ : أَبُو الْفَوَارِسِ الْكَرْمَانِيُّ شَاهُ بْنُ شُجَاعٍ ؛ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ، وَتَشَمَّرَ لِلسُّلُوكِ تَخَفَّفَ لِلِاسْتِبَاقِ مُتَحَقِّقًا بِالِاشْتِيَاقِ، صَحِبَ أَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ، وَأَبَا عُبَيْدٍ الْبُسْرِيَّ، كَانَ ظَرِيفًا فِي الْفُتُوَّةِ عَرِيفًا فِي الْمُرُوءَةِ . راجع : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٢٣٧) .

فقال "شقيق" – رحمة الله عليه – : " فعلى ما بنيتم أنتم أصل مذهبكم" ؟

قال: " على أنَّا إذا رزقنا آثرنا ، وإن منعنا شكرنا وحمدنا .

فجلس "شقيق" بين يدي "إبراهيم بن أدهم" ؛ فقال له: "أنت أستاذنا" .

وقال "الجنيد": " أصل هذا المذهب الإيثار ، فإن لم يكن الإيثار فالمواساة ، فالمعافاة ؛ فمن لم يُعد نفسه في هذه الثلاثة لم يدخل حظيرة القوم ، وهو بعد خارج".

قال "حمدون القصار" ت ٢٧١هـ": إنَّ السلف أخذوا هذه الطريقة بالتقوى والورع لا بالدعاوي" .

قال الله تعالى في قصة" موسى "– عليه السلام– مع "الخضر" : **(هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)**[١] .[٢]

تعقيب :

يلاحظ أنَّ الشيخ " ابن يزدانيار " يؤكد من خلال النصوص التي نقلها عن أئمة التصوف وأعلامه ؛ أنَّ التصوف الإسلامي مستمد من أصول ومصادر أولها القرآن الكريم ، وثانيها ، السنة النبوية المطهرة ، وثالثها الأخلاق والسلوك الذي عايشه الصوفية في حياة الصحابة الكرام ؛ وبهذا يكون التصوف نشأ إسلاميًا وعاش في البيئة الإسلامية ، ووجد أئمته

---

(١) سورة الكهف ، جزء من آيه رقم (٦٦) .

(٢) راجع : روضة المريدين " لابن يزدانيار " مخطوط جامعة برنستون ، لوحة رقم (١٩) ، ومخطوط تركيا ، لوحة رقم (٢١) .

في أصول الإسلام ما ينمي فيهم هذا السلوك ؛ فوجدوا الزهد ، ووجدوا الورع ، ووجدوا الإيثار ؛ وغير ذلك من المقامات والأحوال التي عايشوها في طريقهم الذوقي .

ففي القرآن الكريم – المصدر الأول – : وجد الصوفية ما يؤيد سلوكهم في الزهد والورع وترك زخارف الدنيا ؛ حيث يقول تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[1] .

ويقول تعالى : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[2] .

فالقرآن الكريم مليء بما جعله الصوفية متكأهم في سلوكهم الصوفي من توبة ورضا وتوكل ومحبة ووجد ؛ وغيرهم من المقامات والأحوال التي عايشها الصوفية

ومن هنا يقول الأستاذ "عباس محمود العقاد"ت١٩٦٤م" : "التصوف في الحقيقة غير دخيل في العقيدة الإسلامية لأنه مبثوث في آيات القرآن الكريم ومستكن بأصوله في عقائده الصريحة "[3] .

([1]) سورة الحديد ، الآية رقم (٢٠) .

([2])سورة الأنعام ، الآية رقم (٣٢) .

([3]) راجع : الفلسفة القرآنية ، للعقاد (صـ ١٤٣) ، الناشر : نهضة مصر ، ط٢: (٢٠٠٦م) .

أمَّا بالنسبة للمصدر الثاني : السنة النبوية المطهرة ؛ وقبل أنْ أُشير إلى بعض ما ورد فيها من نصوص توضح ما كان عليه نبينا– صلى الله عليه وسلم –وما دعى إليه من أخلاق وسلوك يصب جميعه في ترك زخارف الدنيا والزهد فيها وكذلك مجمل أخلاقه التي علمها أصحابه ، أدع القارئ مع النص القرآني الذي وضح في عجالة حياته – صلى الله عليه وسلم – حيث يقول تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) [١] .

يقول " الشيخ طنطاوي "ت١٤٣١هـ " : " ففي هاتين الآيتين يأمر الله–تبارك وتعالى –نبيه – صلّى الله عليه وسلّم– أنْ يخير أزواجه بين أنْ يعشن معه معيشة الكفاف والزهد في زينة الحياة الدنيا وبين أنْ يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا" [٢].

وأمَّا الأثار ؛ فمنها ما رواه عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – أنَّه قال : " نَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا" [٣] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيتين (٢٨، ٢٩) .

(٢) راجع : التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوي ، (٥٧/١١) الناشر: دار الرسالة بالقاهرة ، ط٢: (١٩٨٨م) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، باب الزهد ، حديث رقم (٢٣٧٧) ، وحكم عليه بقوله : "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ " . راجع : سنن الترمذي ، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن ==

أمَّا عن طعامه وشرابه وملبسه – صلى الله عليه وسلم – فما روته السيدة عائشة وما ذكر في الكتب الصحاح يبين لنا زهده – صلى الله عليه وسلم– .

فبالنسبة لمطعمه ومشربه صلى الله عليه وسلم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: " وَاللهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: «الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَاهُ "[1] .

==

موسى بن الضحاك" الترمذي"،(٤/ ٥٨٩)، تحقيق : بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت ، سنة الطبع : (١٩٩٨ م).

([1]) متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه ، كِتَابُ الرِّقَاقِ ، بَابٌ: كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، وَتَخَلِّيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ، حديث رقم (٦٤٥٩) ، وراه مسلم صحيحه ، كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ ، حديث رقم (٢٩٧٢) . راجع : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري) ، لمحمد بن إسماعيل " البخاري" (٨/ ٩٨)، تحقيق : محمد زهير ، الناشر: دار طوق النجاة ، ط١ : (١٤٢٢هـ) ، و المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– " صحيح مسلم " (٤/ ٢٢٨٣)، لمسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

وبالنسبة لملبسه ؛ فقد روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ كِسَاءً وَإِزَارًا غَلِيظًا، فَقَالَتْ: " قُبِضَ رُوحُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَيْنِ" (١) .

وهكذا كانت السنة النبوية المطهرة ممثلة في أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته زاخرة بما كان عليه من زهد وورع وتخلي عن زخارف الدنيا ، مما جعله الصوفية مصدراً لهم ؛ كما قال "سهل بن عبدالله التستري" : "أصل مذهبنا ثلاثة أشياء :أكل الحلال ، والاقتداء برسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الأخلاق والأفعال، وإخلاص النية في جميع الأعمال" .

وقبل أنْ أنتقل إلى المصدر الثالث ، لا يفوتني أنْ أذكر ما نص عليه " الشيخ "زروق " في كتابه "قواعد التصوف" ، حيث أكد على أنَّ أصل التصوف في السنة النبوية هو مقام الإحسان ، الذي فسره نبينا الكريم في حديث جبريل ، فإن صدق التوجه الذي عليه مدار التصوف راجع إلى هذا الأصل ، وفي ذلك يقول : " فأصل التصوف مقام الإحسان الذي فسره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " بأنَّ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك " ؛ لأنَّ معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة ، وعليه دائرة"(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، **كِتَابُ اللِّبَاسِ ، بَابُ الأَكْسِيَةِ وَالخَمَائِصِ** ، حديث رقم (٥٨١٨) . راجع : صحيح البخاري (٧/ ١٤٧) .

(٢) راجع : قواعد التصوف (صـ ٢٣) .

وأمَّا بالنسبة للمصدر الثالث : فحياة الصحابة الكرام .

فقد وجد الصوفية في حياة الصحابة ما يجعلهم يرون فيهم القدوة في هذا السلوك القائم على الزهد في الدنيا ومتاعها الزائل رغبة في الآخرة ومتاعها الدائم ؛ وحقيقة أستطيع أنْ أقول قد بدأ هذا السلوك مبكرًا ، فمع الهجرة الأولى قد غرس " صهيب الرومي " ما يُعد مثالاً لترك الدنيا وزينتها حيث ترك ماله وداره رغبة فيما الآخرة ، وفيه نزل قوله تعالى : **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)**[1] .

يقول " القرطبي "ت٦٧١هـ" : نزلت في صهيب فإنه أقبل مهاجرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش فقالوا : لا نتركك تذهب عنا غنيًا وقد جئتنا صعلوكا ، ولكن دلنا على مالك بمكة ونخلي عنك ، وعاهدوه على ذلك ففعل ، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت : ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ربح البيع أبا يحيى ، وتلا عليه الآية "[2].

كما وجدوا في زهد "عمر بن الخطاب" – رضي الله عنه – الخليفة العادل ؛ الذي كانت تحت إمرته بلاد الروم وفارس ومصر والشام وغيرهم ؛ مثالًا لهذا السلوك ؛ وقد سطرت كتب الزهد عنه الكثير ؛ فرويَّ أنَّه لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ أَتَتْهُ الْجُنُودُ وَعَلَيْهِ إِزَارٌ وَخُفَّانِ وَعِمَامَةٌ وَهُوَ آخِذٌ بِرَأْسِ بَعِيرِهِ يَخُوضُ

([1]) سورة البقرة ، الآية (٢٠٧) .

([2]) راجع : الجامع لأحكام القرآن " تفسير القرطبي" ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، (٣/ ٢٠) ، تحقيق: أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش ، الناشر: دار الكتب المصرية القاهرة ، ط٢: (١٩٦٤م) .

الْمَاءَ فَقَالُوا لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، تَلْقَاكَ الْجُنُودُ وَبَطَارِقَةُ الشَّامِ وَأَنْتَ عَلَى هَذَا الْحَالِ ، فَقَالَ: "إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَلَنْ نَلْتَمِسَ الْعِزَّ بِغَيْرِهِ " [١] .

وقد ذكر " الإمام الطوسي "ت ٣٧٨هـ " زهد الصحابة الكرام متمثلًا في الخلفاء الراشدين ؛ بقوله : فمن ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك فجلس على بساط الفقر والتجريد بلا علاقة فإمامه أبوبكر الصديق – رضي الله عنه – ، ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله ، ولصلة الرحم ، وأداء الحقوق ؛ فإمامه فيها "عمر بن الخطاب" – رضي الله عنه – ، ومن جمع لله ، ومنع لله ، وأعطى لله ، وأنفق لله ؛ فإمامه فيها "عثمان بن عفان" – رضي الله عنه ، ومن لا يحوم حول الدنيا وإن جمعت عليه من غير طلبه رفضها وهرب منها ؛ فإمامه في ذلك "علي بن أبي طالب" – رضي الله عنه– " [٢] .

([١]) راجع : المصنف في الأحاديث والآثار ، لأبي بكر بن أبي شيبة ، (٧/ ٩٣) ، تحقيق: كمال يوسف الحوت ، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض ، ط١: (١٤٠٩هـ).

([٢]) راجع :اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ، لأبي نصر السراج الطوسي (صـ ١٨٢)، تحقيق : د/ عبد الحليم محمود ، ود/ طه عبد الباقي سرور ، الناشر : دار الكتب الحديثة بمصر سنة الطبع : (١٩٦٠ م) .

ثانياً : أقوال بعض المستشرقين في بيان أصل التصوف .

سبقت الإشارة إلى أنَّ من تمام الفائدة في هذا المبحث أنْ أُشير في عجالة إلى أقوال بعض المستشرقين في أصول التصوف والرد عليهم ؛ وقبل أنْ أبدء في هذه الإشارة أريد أنْ أؤكد على عدة أمور منها :

أنَّ هناك من المستشرقين من اعترف بتعقد البحث في مسألة أصل التصوف كنيكلسون ؛ مما يُعد سببًا في خطأ الكثير من المستشرقين في بيان أصل التصوف ؛ فقال : " والحق أنَّ التصوف شيء معقد ؛ ومن هنا لم يكن في الطوق أنْ يُقدم جواب بسيط في السؤال عن أصلها ؛ ولعلنا نقترب من الجواب إذا حددنا القوى والحركات المختلفة التي صاغت الصوفية ، وحددت الاتجاه الذي صارت إليه في عهود نموها الباكرة " [1] .

كما أنَّه رفض الفكرة السائدة لدى بعض المستشرقين باعتبار التصوف دخيل على الإسلام ؛ والقائلين برد التصوف إلى مصدر واحد – يعني به الفيداتا الهندية ، أو الأفلاطونية الحديثة ؛ وفي ذلك يقول : " وقد عُولجت مسألة التصوف في الإسلام حتى الآن معالجة خاطئة ؛ فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأنَّ هذه الحركة العظيمة التي استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات والشعوب التي تألقت منها الإمبراطورية الإسلامية يمكن تفسير نشأتها تفسيرًا علميًا دقيقًا بإرجاعها إلى أصل واحد

([1]) راجع : الصوفية في الإسلام ؛ ر . أ نيكلسون ، ترجمة : نور الدين شّربَيه (صـ ١٩) ، الناشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٢: (٢٠٠٢م) .

كالفيداتا الهندية ، أو الأفلاطونية الحديثة ، أو بوضع فروض تفسر جانبًا من الحقيقة لا الحقيقة كلها"[١] .

على إنَّه ومع ذلك ورغم قوله بالأصل الإسلامي للتصوف لم يرفض فكرة التأثير الأجنبي في التصوف ؛ ولعله يقصد بذلك المرحلة المتأخرة من التصوف والتي قد يعبر عنها بالتصوف الفلسفي والتي بدأت على حد تعبير " أبو العلا عفيفي " في القرنين السادس والسابع الهجريين .

وقد عبر عن هذا الرأي " ماسينيون " بقوله : وقد بيَّن" نيكلسون" أنَّ إطلاق الحكم بأنَّ التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول ، فالحق إننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أنَّ الانظار التي اختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل ؛ على أنَّه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة فمما لا يخلو من فائدة أنْ نتعرف على المحسنات الأجنبية التي أدخلت عليه ونمت في كنفه" [٢] .

على أنَّ هذه الخطوة الواضحة من "نيكلسون"، وغيره من المستشرقين التي أكدت المصدر الإسلامي وعدم إغفاله واعتباره الأصل الأصيل في المسألة ؛ تجعلنا نتقدم خطوة إلى الإمام مع بعض المستشرقين

---

(١) راجع : في التصوف الإسلامي وتاريخه ؛ للدكتور : ر. أ نيكلسون ، ترجمة وتعليق : أبو العلا عفيفي (صـ .ع) ، الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة (١٩٤٧م) .

(٢) راجع : التصوف ، لماسينيون ، والشيخ / مصطفى عبد الرازق (صـ ٤٨) .

المعاصرين كالمستشرق الإنجليزي "سبنسر ترمنجهام" الذي انتهى إلى القول بأنَّ التصوف مصدره إسلاميًا خالصًا ولا يمت إلا بصلة طفيفة للمصادر غير الإسلامية ؛ وفي ذلك يقول : " كانت الصوفية تطورًا طبيعيًا بداخل الإسلام تدين بالقليل لمصادر غير إسلامية ، رغم استقبلها اشعاعات من الحياة المتصوفة الزاهدة والفكر الكهنوتي الناسك للمسيحية الشرقية ، وكانت الحصيلة هي أنَّ الصوفية الإسلامية تلتزم بخطوط التطور الإسلامي المميز ؛ وعليه فإننا يمكن أنْ نعتبره – أي التصوف – بحق العقيدة الداخلية الباطنية للإسلام والسر الكامن خلف القرآن " [١].

وقد علق الدكتور" أبو الوفا التفتازاني "ت١٤١٥هـ " على هذه الخطوة المتقدمة من " ترمنجهام " بقوله :" على أنَّ التصوف الذي يذكر "ترمنجهام" عنه أنَّه وصلته اشعاعات من التصوف المسيحي ، أو من الأفلاطونية الحديثة ؛ هو نوع واحد من التصوف ، وهو الذي أُصطلح على تسميته بالتصوف الفلسفي ؛ أمَّا التصوف السني الذي يمثله غالبية صوفية الإسلام ؛ فهو إسلامي النشأة والتطور " [٢] .

كما أود أنْ أؤكد هنا أيضًا على أنَّ تلك الهجمات الموجه إلى التصوف في العصر الحديث من رواد المدرسة السلفية ، أو من بعض الكتاب المُعاصرين قائمة على مسألة الطعن في أصول التصوف مما يمكن أنْ يعبر عنه بأنَّه ترديد لما قاله المستشرقون ؛ ويمكن أنْ نشير هنا إلى ما

([١]) راجع : الفرق الصوفية في الإسلام ، لسبنسر ترمنجهام ، ترجمة وتعليق : د/ عبد القادر البحراوي (صـ ٢٤) ، الناشر : دار المعرفة الجامعية ، سنة (١٩٩٤م) .

([٢]) مدخل إلى التصوف الإسلامي ، للدكتور / أبو الوفا التفتازاني (صـ ٣٧) ، الناشر : دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة ، ط٣: (١٩٧٩م) .

قاله " ابن فوزان " من رواد المدرسة السلفية ، حيث يقول في كتابه " حقيقة التصوف " بعد عرض آراء المناوئين للتصوف : " ومن خلال عرض آراء هؤلاء الكتاب المعاصرين في أصل الصوفية ، وغيرهم مما لم نذكره ، يتبين انَّ الصوفية دخيلة على الإسلام ، يظهر ذلك في ممارسات المنتسبين إليها " ؛ غير أنَّه وإن كان عبر بأنَّ المقصود بذلك متأخري الصوفية دون متقدميهم إلا أنَّه ختم بحثه بالتعميم بقوله : هذا هو دين الصوفية قديماً وحديثاً ، وهذا موقفهم من العبادة ، ولم ننقل عنهم إلا القليل مما تضمنته كتبهم وكتب منتقديهم " [١] .

أمَّا " إحسان إلهي ظهير "ت١٤٠٧هـ " فقد بدا تأثره واضحًا ، برفضه الأصول الإسلامية صراحة ، ونسبة التصوف في أصوله إلى اليهودية والبوذية الهندية والمسيحية ؛ وذلك في كتابه " التصوف المنشأ والمصادر " حيث يقول : " وعلى ذلك عندما نتعمق في تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر ، وأقاويلهم المنقولة منهم ، والمأثورة في كتب الصوفية القديمة والحديثة نفسها ؛ نرى بونًا شاسعًا بينهما وبين تعاليم القرآن والسنة ، وكذلك لا نرى جذورها وبذورها في سيرة سيد الخلق محمد – صلوات الله وسلامه عليه –،وأصحابه الكرام .. بل بعكس ذلك نراها مأخوذة مقتبسة من الرهبنة المسيحية ، والبرهمة الهندوكية ، وتنسك اليهود ، وزهد البوذية ، والفكر الشعوبي الإيراني المجوسي عند الأوائل ، والغنوصية اليونانية ، والأفلاطونية الحديثة لدى الذين جاءوا من بعدهم " [٢] .

([١]) حقيقة التصوف ، لابن فوزان (صـ ٢٠، و ٥٠) .

([٢]) التصوف المنشأ والمصادر ، لإحسان إلهي ظهير (صـ ٥٠) ، الناشر : دار ترجمان السنة – باكستان ، ط١: (١٩٨٦م) .

وهنا أتى الدور على الإشارة إلى أقوال بعض المستشرقين في أصل التصوف والرد عليها :

١/ القائلون بالمصدر الهندي :

ويميل إلى هذا الرأي من المستشرقين " هورتن " ، " وهارتمان " ، فرأى كلا منهما أنَّ التصوف يستمد أصوله من المصدر الهندي ، وقد انتهى " هورتن " بعد دراسة له عن تصوف الحلاج ؛ إلى أنَّ التصوف الإسلامي بعينه هو الفيدانتا الهندية[١] .

ويُجاب عن هذا الرأي ، بأنَّه لا يوجد من الناحية التاريخية ما يؤيد أي اتصال بين المسلمين والهند قبل ظهور التصوف ؛ ولم يُكتب شيء بالعربية عن الهند قبل اكتماله ؛ كما يدل على ذلك كتاب " البيروني" ، " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " فإنَّ هذا الكتاب الذي كان الأول من نوعه ظهر بعد ظهور التصوف بزمن طويل ، كما أنَّه ليس هناك أوجه تشابه بين التصوف والنرفانا الهندية أو الفيدانتا الهندية ؛ فالفناء الصوفي أخص مظاهر التصوف الإسلامي [٢] .

٢/ القائلون بالمصدر الفارسي :

ويميل إلى هذا الراي من المستشرقين " ثولك " ، و" دورزي " ، وقد ادعى كلًا منهما أنَّ التصوف الإسلامي نتاج فارسي في أصله ونشأته

---

(١) المرجع السابق (صـ ٣٠) .

(٢) التصوف " الثورة الروحية في الإسلام " ، للدكتور/ أبو العلا عفيفي (صـ ٥٨) .

وتطوره ، وحجة هؤلاء ما كان من اتصال تاريخي بين العرب والفرس ، وكذلك أنَّ عددًا كبيرًا من المتصوفة الأوائل كانوا من أصل فارسي [١]

ويُجيب عن هذا الرأي الدكتور " محمد مصطفى حلمي "ت١٣٨٨هـ" بقوله : " إنَّ اتصال العرب بالفرس وإنْ كان صحيحًا من الناحية التاريخية ؛ فإننا لا نستطيع مع ذلك أنْ نتبين في وضوح وجلاء أنَّ العقائد الدينية الفارسية والأنظار الفلسفية قد انتقلت عن طريق هذا الاتصال في صورة واضحة إلى العرب وتغلغلت في نفوسهم وعقولهم تغلغلاً قوياً يمكن أنْ يُقال معه : إنَّ التصوف بصفة خاصة كان أثرًا من آثاره وثمرة من ثمراته .. أمَّا التصوف الإسلامي مستمد من مصدر فارسي لأنَّ فريقًا كبيرًا من شيوخ الصوفية كان من الفرس ؛ فذلك ما لا نستطيع أنْ نُقر عليه القائلين به ؛ صحيح أنَّه كان من صوفية الفرس من ترك أثرًا لا يُمحى في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية ..لكن ليس أقل من هذا صحة أنَّ ازدهار الحياة الروحية الإسلامية واصطباغ التصوف فيها بالصبغة العلمية لم يكن أثرًا من آثار صوفية الفرس وحدهم إنَّما هو كذلك ثمرة يانعة من ثمرات هذه الجهود الرائعة التي بذلها كثير من صوفية العراق ومصر والشام[٢]"[٣].

---

(١) كمعروف الكرخي ، وأبي يزيد البسطامي .

(٢) كسليمان الدارني ، وذي النون المصري .

(٣) الحياة الروحية في الإسلام ؛ للدكتور محمد مصطفى حلمي (٤٨/٢، وما بعدها) ،الناشر : دار الكتاب اللبناني ، سنة : (٢٠١١م) .

٣/ القائلون بالمصدر المسيحي :

ويميل إلى هذا الرأي من المستشرقين " فون كريمر " ، و"جولدزيهر"، و"نيكلسون" ، وقد ذهب هؤلاء إلى أنَّ التصوف والزهد يعود بأصوله إلى المسيحية ؛ وحجتهم ما وجد من صلات بين العرب والنصارى في الجاهلية والإسلام ؛ وكذلك ما يلاحظ من وجهة نظرهم من أوجه الشبه بين حياة الزهاد والصوفية وبين ما كان في حياة السيد المسيح ؛ وأحوال الرهبان وطرقهم في العبادة والملبس .

ويُجاب عن ذلك بأنَّ أوجه الشبه لا تُعد دليلًا على أنَّ مصدر الحياة الروحية في جملتها وتفاصيلها نصراني [١]

كما أجاب عن ذلك " أبو الوفا التفتازاني " بقوله : إنَّ "نيكلسون "نفسه في كتابه " تاريخ العرب الأدبي " يعتقد أنْ لا ضرورة للتحري عن أصل مبادئ الصوفية خارج دائرة الإسلام ؛ ويعتبر أنَّ المسيحية على حين أثرت في التصوف إلا أنَّها ليست مصدرًا له .

ولا شك أنَّ حياة النبي وحياة الصحابة تُثبت أنَّ رياضات التصوف والحب الإلهي ، وغير ذلك مأخوذة من مصدر إسلامي بحيث يكون التماسها في المسيحية تكلفاً لا معنى له " [٢] .

([١]) المرجع السابق (٥٥/٢) .

([٢]) مدخل إلى التصوف الإسلامي ، للدكتور / أبو الوفا التفتازاني (صـ ٢٩) ، وقارن بما ورد في : تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام ، ل رينولد نيكلسون ، ترجمة : د/ صفاء خلوصي (صـ ٣٤٥) ، الناشر : مطبعة المعارف– بغداد ، سنة : (١٩٦٩م) .

٤/ القائلون بالمصدر اليوناني " الأفلاطونية المحدثة " :

وقد تحمس لهذا الرأي المستشرق البريطاني " أوليري " ، كما أنِّ " نيكلسون " قد ألمح إلى هذا الأثر بقوله : لا مناص من الاعتراف بما في التصوف من امتزاج بالفكر اليوناني والدين الشرقي لا سيما الأفلاطونية المحدثة "[١] .

ولعل ما دفعهما إلى هذا الرأي ما وقفا عليه في فلسفة" أفلوطين السكندري" الذي ذهب إلى أنِّ المعرفة الحقيقية لا تدرك بالفكر وإنما تدرك بالمشاهدة في حال الغيبة عن النفس من ناحية ، وعن العالم المحسوس من ناحية أخرى ، وهو ما يعبر عنه الصوفية بأنّ المعرفة الحقيقية لا تدرك بالحس ، أو بالعقل ، بل بنور يقذفه الله في قلب العبد بعد أنْ يكون قد خلص من الشوائب والأكدار ، وكذلك نظرية الفيض وغيرها من النظريات الموجودة في الفكر اليوناني والأفلاطونية المحدثة .

ويُجاب عن هذا الرأي: بأننا وإن كنا نعترف للفلسفة اليونانية عامة والأفلاطونية الجديدة خاصة بهذا الأثر فإننا لا نستطيع مع ذلك أنْ نقرر أنَّ هذا الأثر قد بدأ يعمل عمله في أوَّل عهد التصوف ، وإنما الشيء الذي نقبله ، وتنطق به طبيعة المذاهب الصوفية المختلفة ، هو أنَّ ما ظهر من هذه المذاهب في العهود الأولى للحياة الروحية الإسلامية حين كان الزهد والتقشف طابعًا لها ، وما ظهر منها في الوقت الذي بدأ فيه التصوف يأخذ شكلًا علميًا إلى جانب صبغته العملية ، يدل دلالة واضحة على أنَّ

(١) راجع : الصوفية في الإسلام ، لنيكلسون (صـ ٢٥) .

الصوفية المتقدمين ، والزهاد الأولين ، لم يكونوا قد وقفوا بعد على الآثار الفلسفية اليونانية ، أو أنَّهم وقفوا عليها ولم يريدوا إدخالها في مذاهبهم[1].

تعقيب :

بعد هذا العرض الموجز لآراء بعض المستشرقين والذي يتضح من خلاله اعتراف البعض بتعقد البحث في مسألة أصل التصوف ، وكذلك المحاولة الفاشلة من بعضهم برفض أية أصاله للتصوف في بلاد المسلمين واعتباره دخيلاً على البيئة الإسلامية ؛ كما اتضح لنا من خلال هذا العرض اعتدال البعض في الاعتراف بنشأة التصوف في البيئة الإسلامية والرجوع بجذوره الأولى إلى حياة الصحابة ؛ ومما يجب الوقوف عنده وتنبيه القارئ إليه ما وجدناه في آراء بعض المستشرقين من تردد في آرائهم بل هدم بعضهم بعضا ؛ بل نجد الشخص الواحد يغيِّر رأيه ؛ فيختلف باختلاف فترات حياته ؛ على ما سبقت الإشارة إليه من آراء "ثولك" ، و"نيكلسون" .

الأمر الذي يجعلني أنتهي إلى الاتفاق مع الشيخ " ابن يزدانيار " بأنَّ التصوف نشأ وترعرع في البيئة الإسلامية ؛ وأنَّ الصوفية الأوائل قد وجدوا أصوله في القرآن والسنة النبوية المطهرة ؛ كما وجدوا في حياة الصحابة وسلوكهم ما يجعلهم يقتدون بهم في سلوكهم الصوفي وفي مقاماتهم وأحوالهم .

ولا يفوتني في هذا المقام أنْ أذكر ما نص عليه شيخ الصوفية الأمام الأكبر الدكتور "عبدالحليم محمود " لبيان خطأ الكتاب والمستشرقين الذين حاولوا البحث عن مصدر للتصوف الإسلامي خارج بيئة الإسلام

([1]) راجع : الحياة الروحية في الإسلام ؛ للدكتور محمد مصطفى حلمي (صـ ٧١) .

وخارج حياة وسلوك الصوفي نفسه ؛ وذلك بقوله : " لقد وقف الكاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية ؛ والثقافة الكسبية يتأتى فيها التأثر ، والتطور ، والتقليد ؛ فالكاتب ، أو الشاعر ، أو المفكر على وجه العموم ؛ الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية يتلون ويتشكل بما يقرأ ؛ وبما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ؛ إذن هو أثر للبيئة الخارجية ، ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادي ؛ وإذا أردنا أنْ نتحدث في تحديد ودقة فإننا نرى المشكلة التي نحن بصددها تتفرع إلى أمرين :

١/ الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو النزعة إلى سلوك الطريق الصوفي

٢/ الشعور الصوفي

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفي فله مؤثراته الداخلية البحتة ؛ وهي مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية أكثر من أنْ تتصل بعامل خارجي ؛ فلابد إذن من أنْ يكون الاستعداد الشخصي الفردي الفطري موجودًا ومهيئًا ؛ ويكفي لأنْ يسلك هذا الطريق كلمة أو فكرة أو حادثة من الحوادث ؛ فيأخذ فعلا في سيره نحو الله – تعالى – " إني ذاهب إلى ربي " ؛ وهذا العزم المصمم الذي يتمثل في الكلمة الكريمة لابد له من الاستعداد الفطري الذي لا يغني عنه فلسفة أفلاطونية ، ولا فيدانتا هندية ، ولا زرادشتية فارسية .....وقد قرأ "الإمام الغزالي"ت٥٠٥هـ" كتب الصوفية ، ولم يجعل ذلك منه صوفيًا ، ولم يكن بهذه الكتب ، ولا بمطالعته لفلسفة اليونان صوفياً ، ولكنه تبين أنَّ أخص خواصهم –عن حد تعبيره – مالا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق، والحال ، وتبدل الصفات ؛ فليس

التصوف إذن ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ؛ وإنَّما هو ذوق ومشاهدة .....

أما الذوق الصوفي ، والشعور الصوفي ، والمعرفة الصوفية ؛ فإنها استمداد من مصدر النور والهداية "[1]

([1]) راجع : قضية التصوف " المنقذ من الضلال " للأمام عبد الحليم محمود (صـ ٩٧، وما بعدها) ، الناشر : دار المعارف بالقاهرة ، بدون تاريخ .

المبحث الثالث

حقيقة التصوف عند " ابن يزدانيار "

تمهيد :

سأتناول في هذا المبحث ما نص عليه الشيخ " ابن يزدانيار " من نصوص وتعريفات تبين حقيقية التصوف ، وفي الحقيقة لم يقتصر ما ذكره " ابن يزدانيار " في هذا الكتاب على نصوص للصوفية الأوائل تبين حقيقة التصوف وذاتيته ، ولكنه تناول موضوعات أخرى في غاية الأهمية ، سأتناولها في هذا المبحث ، منها رأي " ابن يزدانيار " في نشر علم التصوف لغير أهله ، كما أنَّه ذيل هذا الكتاب بموضوع لو اقتصر عليه هذا الكتاب لكفى ، ألا وهو بيان علاقة التصوف بالفقه ، أو بعبارة أخرى أحوال الصوفية مع العبادات ، مما يُعد ردًا قويًا على من يزعم بأنَّ الصوفية يقولون بإسقاط التكاليف ، وكذلك وضح فيه شروط الصوفية ، وبيان ما يميز الصوفي الحقيقي عن دُعاة التصوف ، وقد ختم " الشيخ ابن يزدانيار " هذا الكتاب بوصية بذلها لسالكي طريق التصوف ، وسأذكرها هنا تتميماً للفائدة .

أولاً : حقيقة التصوف

ذكر الشيخ " ابن يزدانيار " تحت هذا العنوان العديد من تعريفات أئمة الصوفية وشيوخهم الأوائل التي تبين حقيقة التصوف فقال :

سُئل "أبو يزيد البسطامي" عن التصوف فقال: " طرح النفس في العبودية وتعلق القلب بالربوبية " ، وقال: إنَّ التصوف عشر خصال : تجريد التوحيد ، ثم إيثار الإيثار ، ثم حسن العشرة، ثم فهم السماع، ثم

ترك الاختيار ، ثم سرعة الوَجد ثم الكشف عن الخواطر ، ثم كثرة الأسفار ، ثم ترك الاكتساب ، ثم تحريم الادخار".

وقال : سُئل بعضهم عن التصوف فقال " الغيرة والشفقة ؛ فالغيرة على دين الله ، والشفقة على خلق الله" .

وقال : سُئل "الدقاق " ت ٤٠٥هـ" ما أوَّل التصوف ؟ فقال: "العبودية " وقيل: وما آخره ؟ فقال : " الحرية " .

وقال : سُئل "سرير السقطي "ت ٢٥٣هـ" عن التصوف فقال : " هو اسم لثلاث معانٍ ؛ هو الذي لا يُطفئُ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن من علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله – عز وجل– على هتك أستار محارم الله " .

وقال" محمد بن على الكتاني "ت ٣٢٢هـ " : التصوف كله خلق فما زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف " ، وقال : "التصوف كتمان الفاقات ، ومدافعة الأوقات".

وسُئل بعضهم عن التصوف فقال :" الاقتصار من دعاوى الصفات ، والدخول في حال أهل الصفاء" .

وقال : "سُئل" الجنيد" عن ذات التصوف فقال : " إياك وإياه خذ الظاهر ، ولا تسأل عن الذات ، قال فألح عليه ؛ فقال : "الصوفية هم القائمون مع الله من حيث لا يعلمه إلا الله " .

وقيل : " التصوف طلب الصفاء ، والقيام بحقائق الوفاء" .

وقيل:" التصوف حبس النفوس مع الحق بقيد الاتكال ، والصبر تحت السلاسل والأغلال" .

وقال "أبو الحسين النوري" ت٢٩٥هـ" :" التصوف كان حالاً ، فصار قالاً، ثم ذهب الحال والقال ، وبقي الاحتيال".

وقال "الشبلي "ت ٣٣٤هـ" : "هو سكون القلب عن كل ما دون الحق واحتراق الخلق" .

وقال "أبو عبد الله بن خفيف" ت٣٧١هـ" : " التصوف ترك التكلف، واستعمال التظرف ونفي التشرف" .

وقال "أبو الحسن المزني" : التصوف سعادة سبق بها الحق إلى الخلق قبل كونهم ، وقال: "التصوف نعمة من الله، وهمة بالله سبحانه أبطلت كل همة سواه" .

وقال" أبو بكر الكتاني" : " التصوف الخلق الحسن" .

وقال "أبو سعيد الخراز" ت ٢٨٦هـ" : " التصوف يجب أن يكون من ربه ملآء ، ومن غيره فارغاً " .

وقال بعضهم: " التصوف استعمال الخُلق مع الخليقة ، والاقتداء برسول الله – صلى الله عليه وسلم– في الشريعة ، والتحقيق مع الحق بالحقيقة ".

وقيل: "التصوف بذل النفس بقهرها ومنعها فيما سكنت إليه ، وسوء الظن بها وتقبيح محاسنها ، وتعظيم الخلق ، وحسن الظن بهم وتحسين قبائحهم " .

وقيل: "الصوفي الذي يكون لنفسه ناسيًا ، وللإخوان مراعيًا ، وعن الشهوات ساهياً ، ولعبادة ربه مؤديًا" .

وقال" معروف الكرخي "ت ٢٠٠هـ": " التصوف الأخذ بالحقائق، والكلام في الدقائق واليأس مما في أيدي الخلائق" .

سُئل" الجنيد "عن التصوف فقال: " ترك الاختيار" ، وسئل عنه أيضًا فقال : " ترك الشهوات والفضول " ، وقال "الجنيد" : " الصوفي ؛ هو الصافي من نفسه الممتلئ من ربه" .

وسُئل "سهل بن عبد الله "عن التصوف فقال :" التحرك في البادية ، والسكون في الزاوية" .

وقال" الجنيد" : " التصوف ترك الأوطان، وهجر الإخوان " .

وقال" معمر بن الأصبهاني" ت ٤١٨هـ" : " التصوف وَقعٌ من الغيب في القلوب بنفي الريب".

التصوف: " صفاء في العهد ، ووفاء بالعهد ، وفناء بالوَجدِ " .

وقيل : "التصوف إفراد الحق عن أسباب الخلق ، وأنشد "معمر الأصبهاني" في هذا المعني شعراً ؛ فقال :"

إنَّ التصوف سرٌ ليس تبديه *** ولا بحكمك في الأثار تخفيه

فإنَّه لائح في القلب شاهده *** والله أوَّله ، والله مهديه

من كان يطلبه من رسم شاهده *** فإنه تائه قد ضل في التيه

وقال "الجنيد" : " لكل أمة صفوه، وصفوة هذه الأمة الصوفية " .

وسئل" الجنيد " عن التصوف فقال : "الخلق والأدب" ، وسئل أيضًا عن صفات الصوفية فقال : "بدنٌ صيَّار ، وقلب جوَّال ، وعين طيَّار .

وسئل عن أوصاف الصوفية فقال : قوم جازوا على قناطير العشق حتى وقفوا على بساط المنن وخوطبوا بلسان الكرم ، وتوجوا بتاج البهاء ، وأقعدوا على بساط الصفاء فنسوا الدنيا وما فيها" . [١]

تعقيب :

بعد هذه النظرة السريعة على ما ذكره " ابن يزدانيار " من تعريفات للأئمة للتصوف تعبر عن حقيقة التصوف وذاتيته ؛ نجد تعدد تلك التعريفات وتنوعها ، وهذا يجعلني أبحث عن تعليل هذا التنوع والتعدد لتلك المعاني التي تعبر عن حقيقة التصوف وذاتيته ، وأبين أنَّ هذا التنوع والتعدد راجع لاختلافهم في الإحاطة بأطراف حقيقة التصوف ؛ فمنهم من يجمع طرفاً واحدًا ، ومنهم من يجمع أكثر من طرف ، ومنهم من يرنوا إلى الغاية ، ومنهم من يتحدث عن الوسيلة ؛ كل حسب وقته وحاله وحسب المناسبة التي ورد الحديث في شأنها .

وفي هذا يقول شيخنا الدكتور " ضياء الدين الكردي " : " هذه التعريفات في تفسيرها لحقيقة التصوف وإن بدت مختلفة فإنَّها جاءت في حقيقتها تعبيرًا عن الحال الذي مرَّ كل واحد منهم إذ كانوا يقولون : إنَّ الطرق إلى الله متعددة بعدد السالكين إليه ؛ فالتعريفات إذن مختلفة تبعًا لما سلكه كل سالك إلى الله –عز وجل– ؛ ومع هذا فإنَّ النظرة المتأنية توضح أنَّ التعريفات وإنْ اختلفت فمقصدها في النهاية واحد هو الله ، وكيفية

---

(١) روضة المريدين " لابن يزدانيار "مخطوط جامعة برنستون ، لوحة رقم (١٥، و١٦) ، ومخطوط تركيا ، لوحة رقم (١٧، و١٨) .

القرب منه والتعرف عليه بالتزام الطرق الموصلة إليه عبادة وأخلاقًا واتباعًا لدينه " [1].

ثانياً : بذل علم التصوف لغير أهله .

نص الشيخ " ابن يزدانيار " في كتابه" روضة المريدين" على مذهبه ، ورأيه في بذل علم التصوف ونشره لغيره أهله ، واستند في مذهبه على نص نقله عن الإمام جعفر الصادق ؛ فقال : " قال جعفر بن محمد الصادق –كرم الله وجهه – "نُهينا عن إظهار هذا العلم _ يعني علم التصوف _ لغير أهله كما نُهينا عن الزنا ولا إقامة لدين الله إلا بهذا العلم ، و قال : إنَّ الله تعالى وضَحَ[2] من بلغ سره وعلمه إلى غير أهله ،، وفي نسخة أخرى "فضح من بلّغ سره وعلمه إلى غير أهله".

تعقيب :

في الحقيقة مذهب الشيخ " ابن يزدانيار " يمثل أحد المذاهب في هذا الشأن ؛ وإن كان لغيره من أئمة التصوف رأي آخر ، وقد بيَّن هذه المذاهب " الشيخ زروق"

ويمكننا أنَّ نوضح هذا المذاهب ؛ فنقول :

([1]) نشأة التصوف الإسلامي ، للدكتور / محمد ضياء الدين الكردي "بصرف يسير"(صـ ٦٠)، الناشر : المطبعة الفنية بالقاهرة ، سنة (١٩٨١م) .

([2]) أي : أصابه بالبرص ؛ وَضَح ؛ أَي بَرَصٌ . لسان العرب ، لابن منظور (٢/ ٦٣٤) ، الناشر: دار صادر – بيروت ، ط٣ : (١٤١٤ هـ) .

المذهب الأول : ويمثله من أئمة التصوف " سفيان الثوري "ت ١٦١هـ" ؛ وهو ما ذهب إليه الشيخ " ابن يزدانيار " على ما سبقت الإشارة إلية . وذهب كلًا منهما إلى أنَّ التصوف لا يُبذل إلا لأهله .

المذهب الثاني : ويمثله شيخ الطائفة " الإمام الجنيد " ؛ وذهب إلى أنَّ علم التصوف يُبذل لأهله ولغير أهله ؛ وعلل ذلك بأنَّ علم التصوف أحمى جانباً من أنْ يصل إلى غير أهله ؛ فهو مُحصنٌ بذاته ، محميٌ بطبيعته .

المذهب الثالث : ويمثله " الشيخ زروق " الذي ذهب إلى مذهب وسط بين الاثنين فقرر اختلاف الحكم باختلاف الأشخاص فمن وجده حريصاً على التصوف غيوراً عليه والتصوف يناسب حاله بذله له ، ومن وجده على غير هذه الأحوال انصرف بالعلم إلى من هو أهله[١] .

وأتفق مع الشيخ "زروق" في هذا الرأي لأنَّه مذهب وسطي بين الحظر وبين النشر بغير حدود ، وكذلك لأنَّ علم التصوف قائم على الأحوال والأذواق ، والشيخ في التصوف يعلم حال مريديه وأقبالهم على العلم ما يجعله يبذل لهم ما يُناسب حالهم وما يجب حظره ، وهكذا الحال في شأن العامة .

---

(١) راجع : لآلئ الجواهر من المرشد المعرف ، للدكتور طه حبيشي ، (صـ ٤٧) .

ثالثاً : شروط التصوف :

بيَّن الشيخ " ابن يزدانيار " شروط التصوف وما كان علية الصوفية الأوائل ؛ فقال : " شرائط التصوف وما كان عليه المشايخ المتقدمون من : الزهد في الدنيا والاشتغال بالذكر والعبادة ، والاستغناء عن الناس ، والقناعة والرضا بالقليل في المطعوم ، والمشروب ، والملبوس ، ورعاية الفقر ، وترك الشهوات ، والورع والمجاهدة ، وقلة النوم والكلام ، وجمع الهمم ، والمراقبة ، والوحشة عن الخلق والرغبة في الفرار بالدين العزيز، ورؤيا المشايخ ، والأكل عند الفاقة ، والكلام للضرورة ، والنوم على الغلبة ، والجلوس في المساجد ، ولبس المرقوع .

فمن كان على ذلك فالكتاب ناطق بقوله ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – شاهد بقبوله ؛ لأنَّ الصوفية هم أمناء الله في أرضه ، وخزنة أسراره وعلمه وصفوته من خلقه ، وهم ممدوحون بلسان النبي – صلى الله عليه وسلم – ؛ لما روت عائشة – رضي الله عنها– أنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: **" مَنْ سَأَلَ عَنِّي أَوْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَشْعَثَ شَاحِبٍ مُشَمِّرٍ لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ، وَلَا قَصَبَةً عَلَى قَصَبَةٍ، رُفِعَ لَهُ عِلْمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ، وَغَدًا السِّبَاقُ، وَالْغَايَةُ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ"**[1] .

([1]) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والطبراني في الأوسط ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، وعلَّق عليه بقوله :" فيه سليمان بن أبى كريمة ، وهو ضعيف" . راجع : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصفهاني ، (١/ ٩) ،الناشر: مطبعة السعادة – بالقاهرة سنة : (١٩٧٤م) ، المعجم الأوسط ، للطبراني ، (٣/ ٣٠٦) ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، الناشر : دار ==

وهذا الحديث يجمع أصول المتصوفة كلها ، وأفعالهم ، فمن أنكر هذا المذهب فلقلة معرفته به ، وقلة الاهتداء بحقائقه ، لأنَّ العزير قليلٌ من يعرفه ، قال الله – عز وجل – : " **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ**"(١) . (٢)

==

الحرمين – القاهرة ، سنة : (١٤١٥هـ) ، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لأبي بكر الهيثمي (١٠/ ٢٥٨) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، سنة : (١٩٨٨م) .

(١) سورة الأحقاق ، جزء من آية رقم (١١) .

(٢) راجع : روضة المريدين " لابن يزدانيار " مخطوط جامعة برنستون ، لوحة رقم (٩٣) .

رابعاً : الصوفية ، وأحكام الشريعة :

أكد الشيخ " ابن يزدانيار " على تمسك الصوفية بأحكام الشريعة وأعمال الجوارح ، والربط بينها وبين أعمال القلوب ، كما أنَّه رفض ما عليه دُعاة التصوف من تمسك بظاهر اللبسة دون أن يقوموا للتصوف بحقه ، كما حذر من الخلط بين الصوفية وبين دُعاة التصوف ؛ فقال : " والذي يدعي هذا المذهب بتعطيل الجوارح من العبودية والخدمة والطاعات ، وتعطيل القلب من الذكر والإرادة وجمع همه ومعرفة الواردات وإخلاص النية فلا يؤدي حقه ولا يدعي حقائقه ؛ فالطاعة رسمه وحقيقة أمره أنَّه يدعى التصوف ليعز به عند الناس ، ويأكل به ، ويتخذ الجاه بإظهاره ويأخذ الطيبة به ؛ فإذا بدت له حقائق التصوف من الفقر والإنفاقات والذل والمكروهات ، وطولب بالخدمة والمجاهدات والمقامات ؛ ذهب وخسر وافتضح ، وصار بترك أدائه حقه خارجًا عنه ، وتكون دعواه بظاهر لبس المرقعات والمصبوغات بلا خشية ولا مراقبة ولا ورع ولا مجاهدة ولا ذكر ولا معاملة ؛ فإنه تسخر منه نفسه ، والتصوف يلعنه ، والدعاوي تحجبه ، والشيطان يقربه ، والملائكة تبعده ، والله –عز وجل – من فوق العرش يمقته ، وأهل التصوف في الحقيقة خصمائه ؛ فمن لم يكن للعلم مستعملًا ، وفي الإرادة مبادرًا ، وفي الوجد سابقًا ، وفي المعرفة محققًا ، وادعى التصوف كان مرتهنًا بدعواه ، متبعًا هواه ، محجوبًا عن معناه " [1].

([1]) راجع : روضة المريدين " لابن يزدانيار " مخطوط جامعة برنستون ، لوحة رقم (٩٤) .

تعقيب :

في السطور السابقة أكد الشيخ " ابن يزدانيار " على العلاقة الوثيقة بين الشريعة والسلوك الصوفي ، فالصوفي يجعل من الشريعة أساسًا ، ويجعل طريقه الصوفي من العبادات والمجاهدات هي الوسيلة ليصل بها إلى الحقيقة التي تُعدُ ثمرة طريقة الصوفي .

هذا وإنْ كان هناك من أصحاب السلوك الصوفي من أطلق لفظ الشريعة على ما يعم أحكام الظاهر وأحكام الباطن ؛ وفي ذلك يقول " السراج الطوسي " : " إنَّ علم الشريعة واحد ، وهو اسم واحد يجمع بين معنيين : الرواية والدراية ؛ فإذا جمعتهما ؛ فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة ، ولا يجوز أنْ يجرد القول في العلم إنَّه ظاهر ، أو باطن ؛ لأنَّ العلم متى كان في القلب فهو باطن إلى أنْ يجري ويظهر على اللسان ؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر غير أنَّا نقول: إنَّ العلم ظاهر وباطن ؛ وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة " [١].

وهذا ما يجعلنا نتقدم خطوة للأمام لبيان العلاقة بين الحقيقة التي هي ثمرة السلوك الصوفي وبين الشريعة؛ فالحقيقة لا يمكن الحصول عليها بمخالفة الشريعة ، أو بمجرد التغاضي عنها ؛ ولذا يقول " الجنيد " من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأنَّ علمنا مُقيد بالكتاب والسنة "[٢] .

---

(١) اللمع (صـ ٤٣) .

(٢) دراسات في التصوف والأخلاق ، للدكتور / سامي عفيفي حجازي (صـ ١٢٥) ، الكتاب الجامعي بكلية أصول الدين القاهرة ، بدون تاريخ .

وقد لخص الإمام "القشيري" في رسالته هذه العلاقة بقوله : "الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ؛ فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقية غير مقبولة ، وكل حقيقية غير مقيدة بالشريعة مرفوضة"[١].

وأختم هذا المبحث بوصية الشيخ " ابن يزدانيار " التي يؤكد من خلالها على التمسك بالشريعة والعمل بها والإخلاص في سلوك الطريق الصوفي .

وصية " ابن يزدانيار " للتمسك بالشريعة والقيام بحق التصوف :

يقول الشيخ " ابن يزدانيار " فاتق الله يا أخي واحفظ الظاهر ، وتعلق بالأصل ، فإن كل باطن من العلم لا يشهد له ظاهر منه فهو ضلالة، وإذا لم يكن للمتصوف سمت يعرف به ، ولا يقتدى به ، ولا صلاح في طريقه ، واقتصاد في سيره ، وصدق في جميع أحواله فأنَّى يصح له التصوف ، ومن كان عنده التصوف التمتع بالأكل والشرب والشهوات ومراقبة العامة في الحركات ، وموافقة النفوس ، وسماع المكروهات ، وأكل المحرمات ؛ ممن لا يشهد بتصوفه إيثار المتقدمين من مشايخ التصوف ؛ كان من المدعين جعلنا الله وإياكم من المهتدين المقتدين " [٢].

---

(١) الرسالة القشيرية (صـ ١١٨) .

(٢) راجع : روضة المريدين " لابن يزدانيار " مخطوط جامعة برنستون ، لوحة رقم (٩٥) .

الخاتمة

سبقت الإشارة إلى قرب مولد " ابن يزدانيار " من القرون الثلاثة الأولى ؛ فمولده في القرن الرابع الهجري جعل تلقيه العلم والسلوك الصوفي على أوائل الصوفية وشيوخهم ؛ الأمر الذي يجعلنا نطمئن إلى آرائه ومذهبه ؛ حيث يُعدُ عصره باتفاق بين كتاب التصوف ومؤرخيه من العصور التي تعبر عن التصوف الخالص التي خلت من التأثر بالبيئات الخارجية ؛ هذا على فرض صدق مذهبهم في تأثر التصوف الإسلامي في مراحله المتأخرة بالبيئات والثقافات الخارجية .

- **أهم النتائج :**

أستطيع أنْ أضع أمام القارئ أهم النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة ، ومنها :

١/ أنَّ قضايا التصوف تُعدُ من أهم القضايا التي تمثل جزءًا كبيرًا من التراث الإسلامي التي يجب الحفاظ عليها والدفاع عن ثوابتها .

٢/ استطاع " ابن يزدانيار " أنْ يتناول من خلال كتابه " روضة المريدين " جميع قضايا التصوف الإسلامي ، وإنْ كان هذا البحث قد تناول بعضها ، أو أهمها من حيث تجدد البحث فيها بين فترة وأخرى ، وكذلك تعرض التصوف وأهله للانتقاد من خلالها من ناحية أخرى .

٣/ استطاع " ابن يزدانيار " أنْ يبين من خلال هذا الكتاب الأصول التي بُنيَّ عليها التصوف الإسلامي ؛ حيث أثبت أصوله الأولى المتمثلة في الكتاب ، والسنة النبوية المطهرة ، وحياة الصحابة الكرام ؛ مما يُعدُ رداً على

زعم المستشرقين وأعداء التصوف ممن ذهبوا إلى خلو البيئة الإسلامية من التصوف واعتباره دخيل على البيئة الإسلامية .

٤/ أكد " ابن يزدانيار " على ذاتية التصوف الإسلامي ؛ وأنَّه قائم على صدق التوجه إلى الله وإخلاص العبادة له ؛ وأنَّ كثرة التعريفات المُعبرة عن حقيقة التصوف وذاتيته ترجع إلى اختلاف أحوال الصوفية مع ربهم ، فكل صوفي إنما يُعبر عن الحال الذي مرَّ به .

٥/ تبنى " ابن يزدانيار " من خلال كتابه ؛ الرأي . القائل بحظر نشر التصوف الإسلامي لغير أهله .

٦/ أكد " ابن يزدانيار " على العلاقة الوثيقة بين الشريعة والحقيقة ، أو بعبارة أخرى الشريعة والسلوك الصوفي ؛ مما يُعدُ رداً على القائلين بدعوى أنَّ الصوفية يقولون بإسقاط التكاليف الشرعية .

٧/ ميزَّ " ابن يزدانيار " بين الصوفي الحقيقي ، وبين دُعاة التصوف ، وحذر من دُعاة التصوف وبيَّن حالهم ومآلهم .

- **أهم التوصيات :**

هذا وإن كان لي أنْ أوصي بشيء ؛ فيمكنني من خلال هذا البحث أنْ أقدم بعض التوصيات ومنها :

١/ دعوة الباحثين إلى الاهتمام بالتراث الصوفي سيما ما قدمه متقدمي الصوفية وأئمتهم .

٢/ دعوة الباحثين إلى الوقوف على الشبهات التي يثيرها أعداء التصوف وتفنيدها والرد عليها .

٣/ المعرفة الصحيحة لأصول هذا العلم وهذا التراث العظيم ؛ فبالمعرفة الصحيحة تتكون لدى الباحثين ملكة النقد التي تميز بين الصحيح والفاسد ، بين الصوفي الحقيقي ، ومدعي التصوف .

وأخيرًا لا يسعني في نهاية هذه البحث المتواضع إلا أن أردد ما قاله أستاذ البلغاء القاضي الفاضل"عبدالرحيم البيساني"ت٥٩٦هـ"؛ للعمادالأصفهاني"ت٥٩٧هـ"؛ معتذرًا عن كلام استدركه عليه، حيث قال : " إني رأيت أنَّه لا يكتب أحدٌ كتابًا في يومه ، إلا قال في غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ هذا لكان يُستحسن ، ولو قُدِمَ هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظمَ العبرِ ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص علي جملة البشر" . [١]

هذا آخرُ ما أذكرهُ في هذا البحث، والحمدُ للهِ واهبِ العقلِ والهدايةِ ، والصلاةُ والسلامُ علي سيدنا محمدٍ مُنجي الخلق من الغواية ، وأصحابِه الذين هم أهل الدراية ، والحمدُ لله أولاً وآخرًا .

[١] راجع : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، للمؤرخ مصطفى عبد الله الشهير بحاجي خليفة (١٨/١) ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، دون تاريخ .

المراجع والمصادر[1]

- بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . الناشر : دار الفكر . ط٢:(١٩٧٩م) .
- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ، للإمام الذهبي ، تحقيق : د/ بشار عوّاد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي ، ط١ (٢٠٠٣ م) .
- تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام ، ل رينولد نكلسن ، ترجمة : د/ صفاء خلوصي ، الناشر : مطبعة المعارف– بغداد ، سنة : (١٩٦٩م) .
- التصوف " الثورة الروحية في الإسلام " ، للدكتور/ أبو العلا عفيفي ، الناشر: دار الشعب – بيروت ، بدون تاريخ .
- التصوف ، لماسينيون ، والشيخ / مصطفى عبد الرازق ، الناشر : دار الكتاب اللبناني ، ط١ : (١٩٨٤م) .
- التصوف المنشأ والمصادر ، لإحسان إلهي ظهير، الناشر : دار ترجمان السنة – باكستان ، ط١: (١٩٨٦م) .
- التصوف في الإسلام " دراسات ونصوص من كتاب قواعد التصوف للشيخ زروق " للأستاذ الدكتور / طه حبيشي ، الناشر : مكتبة الإيمان ، بدون تاريخ .

(1) رتبت قائمة المصادر ،والمراجع على حروف المُعجم؛ باسم الكتاب .

- التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت ، ط١: (١٤٠٥هـ).
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، للأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوي ، الناشر: دار الرسالة بالقاهرة ، ط٢: (١٩٨٨م) .
- تلبيس إبليس ، لابن الجوزي ، الناشر : دار الفكر للطباعة – لبنان ، ط١: (٢٠٠١م) .
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري) ، لمحمد بن إسماعيل " البخاري"، تحقيق : محمد زهير ، الناشر: دار طوق النجاة ، ط١ : (١٤٢٢هـ) .
- الجامع لأحكام القرآن " تفسير القرطبي" ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق: أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش ، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط٢: (١٩٦٤م) .
- حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العبادة والدين ، للشيخ / صالح بن فوزان ، الناشر : دار العاصمة بالسعودية ، ط١: (١٤١٢هـ) .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصبهاني ، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ، (١٩٧٤م) .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصفهاني ، الناشر: مطبعة السعادة – بالقاهرة ، سنة : (١٩٧٤م) .

- الحياة الروحية في الإسلام ؛ للدكتور محمد مصطفى حلمي ،الناشر : دار الكتاب اللبناني ، سنة : (٢٠١١م) .
- الرسالة القشيرية في علم التصوف ، لأبي القاسم القشيري ، تحقيق : د/ عبد الحليم محمود ، الناشر : المكتبة التوفيقية بالقاهرة ، سنة النشر : (٢٠٠٨م)
- سنن الترمذي ، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك" الترمذي"، تحقيق : بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت ، سنة الطبع : (١٩٩٨ م).
- سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، ط٣ (١٩٨٥م) .
- شفاء السائل وتهذيب المسائل ، لابن خلدون ، تحقيق : محمد مطيع الحافظ ، الناشر : دار الفكر المعاصر – بيروت ، ط١: (١٩٩٦م) .
- الصوفية في الإسلام ؛ ر . أ نيكلسون ، ترجمة : نور الدين شّربَيه ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٢: (٢٠٠٢م) .
- الصوفية معتقداً ومسلكاً ، لدكتور/ صابر طعيمه ، الناشر : مكتبة المعارف ط٢ (١٩٨٥م) .
- طبقات الصوفية ، للسلمي ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، الناشر : دار الكتب العلمية– بيروت ، ط٢: (٢٠٠٢م) .

- الفرق الصوفية في الإسلام ، لسبنسر ترمنجهام ، ترجمة وتعليق : د/ عبدالقادر البحراوي ، الناشر : دار المعرفة الجامعية ، سنة (١٩٩٤م) .
- الفلسفة القرآنية ، للعقاد ، الناشر : نهضة مصر ، ط٢: (٢٠٠٦م) .
- في التصوف الإسلامي وتاريخه ؛ للدكتور : ر. أ نيكلسون ، ترجمة وتعليق: أبو العلا عفيفي ، الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة :

(١٩٤٧م) .
- قضية التصوف " المنقذ من الضلال " للأمام عبد الحليم محمود ، الناشر : دار المعارف بالقاهرة ، بدون تاريخ .
- قواعد التصوف ، للشيخ أحمد بن زروق الفاسي ، تحقيق : عبد المجيد خيالي ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٢: (٢٠٠٥م) .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، للمؤرخ مصطفى عبد الله؛ الشهير بحاجي خليفة ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، دون تاريخ .
- اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ، لأبي نصر السراج الطوسي ،تحقيق : د/ عبد الحليم محمود ، ود/ طه عبد الباقي سرور ، الناشر : دار الكتب الحديثة بمصر ، سنة الطبع : (١٩٦٠ م) .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لأبي بكر الهيثمي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت سنة : (١٩٨٨ م) .
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، للراغب الأصفهاني ، الناشر دار الأرقم بن الأرقم – بيروت – ، ط ١ : (١٤٢٠ هـ)
- مدخل إلى التصوف الإسلامي ، للدكتور / أبو الوفا التفتازاني ، الناشر : دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة ، ط٣: (١٩٧٩م) .
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– " صحيح مسلم " ، لمسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، بدون تاريخ .
- المصنف في الأحاديث والآثار ، لأبي بكر بن أبي شيبة ، (٧/ ٩٣) ، تحقيق: كمال يوسف الحوت ، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض ، ط١: (١٤٠٩هـ) .
- المعجم الأوسط ، للطبراني ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، الناشر : دار الحرمين – القاهرة ، سنة : (١٤١٥هـ) .
- المعجم الوسيط، الناشر : مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط/ دار الدعوة .
- مفهوم الألوهية، أشرف حافظ، الناشر: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، ط١(١٩٩٩م.)

- نشأة التصوف الإسلامي ، للدكتور / محمد ضياء الدين الكردي ، الناشر : المطبعة الفنية بالقاهرة ، سنة (١٩٨١م) .
- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للشيخ / عبد الوهاب الشعراني ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، بدون تاريخ .

فهرس الموضوعات

المحتويات

مقدمة ١٤٨٣
تمهيد ١٤٨٧
المبحث الأول ١٤٨٩
اشتقاق التصوف عند " ابن يزدانيار " ١٤٨٩
تعقيب : ١٤٩١
المبحث الثاني ١٥٠٢
أصل ما بُنيَّ عليه التصوف ١٥٠٢
تمهيد : ١٥٠٢
أولاً : أصل ما بُنيَّ عليه التصوف عند " ابن يزدانيار " ١٥٠٣
تعقيب : ١٥٠٥
ثانياً : أقوال بعض المستشرقين في بيان أصل التصوف ١٥١٢
تعقيب : ١٥٢٠
المبحث الثالث ١٥٢٣
حقيقة التصوف عند " ابن يزدانيار " ١٥٢٣
تمهيد : ١٥٢٣
أولاً : حقيقة التصوف ١٥٢٣
تعقيب : ١٥٢٧
ثانياً : بذل علم التصوف لغير أهله ١٥٢٨
تعقيب : ١٥٢٨
ثالثاً : شروط التصوف : ١٥٣٠
رابعاً : الصوفية ، وأحكام الشريعة : ١٥٣٢
تعقيب : ١٥٣٣
وصية " ابن يزدانيار " للتمسك بالشريعة والقيام بحق التصوف : ١٥٣٤
الخاتمة ١٥٣٥
المراجع والمصادر ١٥٣٨
فهرس الموضوعات ١٥٤٤

قسم
الدعوة والثقافة
الإسلامية